مجلة العلوم الإنسانية
Journal of Human Sciences
www.Suj.sebhau.edu.ly
Received 12/10/2017 Revised 25/12/2017 Published online 01/01/2018

لوك وطبيعة العلاقة بين اللغة ونظرية الفكر

سالمة صالح فرج
قسم فسلفة– كلية الآداب–جامعة سبها، ليبيا

الملخص

من الأمور الأساسية في التفكير الفلسفي طابعه النسقي، لهذا يحرص الفلاسفة على ضرورة الاتساق في أنساقهم الفلسفية التي يؤسسونها، لذا كان لابد لهم من مراعاة عنصر الانسجام في نتاجهم الفلسفي، وهو أمر لن يتحقق إلاَّ إذا توفر للفيلسوف نظرية فكرية تساعده على تحديد موقفه من عددٍ من القضايا والعناصر التي ستدخل في بناء نسقه الفكري. هذه السمة نجدها حاضرة عند جُلِّ الفلاسفة الذين حرصوا على بناء نسق فكري متكامل.

أدرك **جون لوك** أهمية هذه الخاصية عند محاولته بناء نسقه الفلسفي، لهذا كان ملزماً بتحديد موقفه من بعض القضايا المطروحة في سياقه التاريخي، وهي سبق وأن حدد الفكرُ المدرسي موقفه منها، لهذا، فقد قابل موقف الآخير بالاعتراض، مُعتمداً في ذلك على النظرية الحسية والتي وجد فيها خير بديلٍ للنظرية المدرسية، وفي ضوء نظريته الجديدة رسم موقفه من عدد من القضايا التي انبرى لبحثها والتي من أهمها قضية طبيعة اللغة، والتي حددت بدورها موقفه من نظرية الفكر والمعرفة، فاللغة عنده ذات طبيعة حسية، لهذا كانت مهمة الفكر هي صف الواقع وبشكلٍ دقيقٍ والابتعاد عن بحث القضايا التي تتجاوز حدود الواقع.

المقدمة

تُعدُّ لحظةُ **لوك**1 Jolm Locke لحظةً مُهمة في تاريخ الفلسفة الغربية الحديثة، وبالأخصِّ مَا تعلق منْهَا بالفكرِ أو المدرسة **الأنجلوسكسونية**؛ بل إنَّ تأثيرَ فلسفته لم يقفْ عنْدَ حدودِ الفلسفةِ الحديثة بلْ تعداهُ ليشملَ الفلسفةَ الغربيةَ المُعاصرة، وهو مَا يبدو واضحاً في عددٍ منَ الفلسفاتِ المُسيطرةِ والمُهيمنةِ على الثَّقافةِ الغربيةِ المُعاصرةِ وأخصُّ بالذكرِ الفلسفتينِ الوضعيةِ والتَّحليلية.

سنُحاولُ في هذه الورقة تشخيصَ مفهومِ وطبيعةِ اللغةِ السَّائدينِ في فلسفةِ **لوك**، معَ الأخذِ بعينِ الاعتبارِ أنَّ تشخيصَ هذا الأمرِ يستلزمُ ضرورةَ مُقاربتهِ منْ زاويةٍ خاصة. فموقفه من اللغة سيرسمُ بالضرورةِ آليةَ عملِ الفكرِ ونوعَ المعرفةِ التي سيركنُ إليها، أي أنَّ تصور **لوك** للغةِ سيكونُ بمثابةِ البابِ الَّذي يُمكنُ منْ خلالهِ مُقاربةُ طبيعةِ الفكرِ عنْده.

تكمنُ قيمةُ موقفِ **لوك** منَ اللغةِ منَ الدَّورِ الَّذي سيلعبهُ في الفلسفتينِ الحديثةِ والمُعاصرة، ففي هذا السِّياقِ توجدُ كثيرٌ منَ الفلسفاتِ تتخذُ منْ فلسفةِ **لوك** اللغويةِ مرجعيةً لها عنْدَ رسمِ موقفها منْ طبيعةِ اللغة، مثالُ ذلكَ الفلسفةُ الوضعيةُ المنطقية.

لعبتْ نظريةُ الفكرِ عنْدَ **لوك** دوراً مُهماً في إعادةِ رسمِ مسارِ الفلسفةِ الغربية، فعنْ طريقِهَا تمكنَ **لوك** منْ إجراءِ قطيعةٍ معرفيةٍ معَ نظريةِ المعرفةِ الَّتي كرستَهَا الفلسفةُ المدرسية، إلى جانبِ ذلكَ، قطعتْ هذه النَّظريةُ معَ نظريةِ المعرفةِ الَّتي أسسهَا الفيلسوفُ الفرنسيُّ **ديكارت**، ممَّا أسهمَ في رسمِ وشقِّ مسارٍ ثانٍ للفلسفةِ الغربية، كمَا ساعدتْ هذه النَّظريةُ في تسويغِ مفهومهِ للغة، بالإضافةِ إلى ذلكَ، لعبتْ نظريةُ الفكرِ عنْدَ **لوك** دوراً أساسياً في الفلسفةِ المُعاصرةِ خاصةً ما تعلقَ منْهَا بالفلسفةِ الوضعيةِ والتَّحليلية.

طبيعة اللغة عند لوك

جاءَ تصورُ **لوك** للغةِ مُنسجماً معَ السِّياقِ العامِ للفلسفةِ التي سعى إلى تأسيسها، والَّتي هدفت أولاً، للقطيعةِ معَ الفلسفةِ الوسيطةِ الَّتي كرستِ الاعتقادَ أنَّ اللغةَ ذاتَ طبيعةٍ وقفية، هذا الموقفُ كانَ امتداداً للاعتقادِ الغالبِ عَليهَا بأنَّ العقلَ الإنسانيَّ يولدُ وهو مزودٌ بمجموعةٍ منَ الأفكارِ الفطرية، وبمَا أنَّه لا يُمكنُ التَّعبيرُ عنْ هذه الأفكارِ بمعزلٍ عنِ اللغةِ صُدرَ عَلى حضورِ الأخيرةِ بحضورِ الأفكارِ الفطرية.

أسسَّ **لوك** فلسفتَهُ الجديدةَ عَلى أُسسٍ مُغايرةٍ لتلكَ الَّتي قامتْ عَليها الفلسفةُ المدرسيةُ، خصوصيةُ التَّأسيسِ انعكسَ عَلى تصورهِ وموقفه منْ طبيعةِ اللغةِ وعلاقتها بالفكرِ والمعرفة، فاللغةُ عنْدَهُ حادثةٌ اصطلاحيةٌ2 ــ يكتسبهَا الإنسانُ باحتكاكهِ بمُجتمعهِ الخارجيِّ، لهذا، تتسعُ دائرةُ اللغةِ باتساعِ دائرةِ المُحيطِ الاجتماعيِّ والبيئيِّ المُحيطِ بالإنسان.

قبل عرضِ موقفِ **لوك** من طبيعةِ اللغة، كان لا بد من التَّطرقِ إلى معالجةِ قضيةٍ هامةٍ تتعلقُ بأصلِ اللغة، في هذا السِّياقِ يُمكنُ التَّمييزُ بين موقفينِ، يرى الأول أنَّ اللغةَ وقفيةٌ في

حين يعتقدُ الموقفُ الثاني أنها اصطلاحية. تنصُ النظريةُ الوقفيةُ على أنَّ مصدرَ اللغةِ خارجي، وعادة ما تكونُ من قوةٍ ماورائيةٍ تزودُ الإنسانَ بها، ويتمُ تسويغُ هذه النَّظريةِ بالاعتمادِ على أدلةٍ مُستقاةٍ من الخطابِ الديني، وكان من أشهرِ أنصارِ هذه النظريةِ **هرقليطس وإفلاطون**. في المُقابلِ سادَ في تاريخِ موقفٌ آخرٌ منَ اللغةِ يعتقدُ أنَّ أصلَها ينبعُ من الإنسانِ، فهي مرتبطةٌ بوجوده، من هنا، نشأ الاعتقادُ أنها اصطلاحيةٌ توافقيةٌ، تكونُ نتيجةً طبيعيةً للاجتماعِ الإنساني الذي يكون بحاجةٍ إليها لتبادلِ الأفكارِ والمشاعرِ، ولعل من أهم أنصارِ هذا الاتجاه المدرسة **السوفسطائية** في السِّياقِ اليونانيِّ **وابن جني** في الفلسفة الإسلامية، **وسابير** في الفكر المعاصر.

يذهبُ **لوك** إلى الإقرارِ أنَّ اللغةَ مُكتسبةٌ، يكتسبُها الإنسانُ عبرَ انخراطِه وتفاعلِه مع الحياةِ الاجتماعية، وفي هذا الجانبِ يُميزُ بينَ مرحلتينِ منْ مراحلِ اكتسابِ اللغةِ؛ مرحلةٌ أولى تُعرفُ بمرحلةِ الاستعدادِ التي يُولدُ الإنسانُ وهو مزودٌ بها، ومرحلةٌ ثانيةٌ تُسمَّى بمرحلةِ اكتسابِ اللغةِ وهي تقومُ على تفعيلِ الاستعدادات، غيرَ أنَّ هذا لا يعني بالضَّرورةِ أنَّ **لوك** منْ أنصارِ النَّظريةِ الوقفية: ((يرى **لوك** أنَّ **اللهَ** خلقَ الإنسانَ وزودَهُ باللغة، لا بمعنى أنَّها مفطورةٌ فيه؛ بلْ بمعنى أنَّهُ زودَهُ بالقُدرةِ على إخراجِ أصواتٍ مُعينةٍ وتنظيمِها بطريقةٍ خاصةٍ حتَّى تُصبحَ كلماتٍ أو ألفاظَ اللغة))3. كانَ **لوك** يؤمنُ أنَّ الإنسانَ مخلوقٌ منْ قبلِ **الذَّات الإلهية**، وهي منْ زودتَهُ بالأدواتِ الَّتي هو بحاجةٍ إليها لتسهيلِ حياته، مثل أعضاءِ النُّطقِ الَّتي تُساعدُهُ على إصدارِ الأصواتِ لأجلِ التَّواصلِ معَ الآخرين، إلاَّ أنَّ تزويدَ الإنسانِ بالأدواتِ لا يعني أنَّ **اللهَ** زودَهُ باللغةِ وإلاَّ كانتِ اللغةُ واحدةً عندَ كُلِّ البشر: ((واللغةُ بالنِّسبةِ لـــ **لوك** شيءٌ مصنوعٌ، صنعَها الإنسانُ بالرُّغمِ منْ توارثِه إياها جيلاً بعدَ جيل ــ إلاَّ أنَّها تُعتبرُ شيئاً اختيارياً على أساسِ أنَّهُ لا توجدُ علاقةٌ أو رابطةٌ ضروريةٌ بينَ أيِّ لفظٍ وبينَ ما يُشيرُ إليه منْ أفكار، لأنَّهُ لو كانَ ذلكَ كذلك. "لكانتْ هُناكَ لغةٌ واحدةٌ فقط يتداولُها جميعُ النَّاس"))4. يعتقدُ **لوك** أنَّ القولَ بأنَّ مصدرَ اللغةِ هو **اللهُ** يتعارضُ معَ ما نُلاحظُهُ في الظَّاهرةِ اللغويةِ على العموم، فهي منْ جهةٍ تفتقدُ للوحدةِ الَّتي تُدلِّلُ على أنَّها صدرتْ عنْ ذاتٍ واحدة، كما أنَّ العلاقةَ الاعتباطيةَ بينَ اللفظِ والمعنى يُدلِّلُ على أنَّها مُنتجٌ إنسانيٌ بامتياز، لهذا السَّبب، تعددتِ اللغاتُ بتعددِ المُجتمعاتِ والثَّقافات.

نشأَ الإشكالُ حولَ طبيعةِ اللغةِ في فلسفةِ **لوك** من اعتقادِه وقولِه أنَّ اللغةَ مفطورةٌ في الإنسان، يكمنُ الإشكالُ في تعارضِ هذا القولِ وتناقضِه معَ الإطارِ العامِ لفلسفته: ((على الرُّغمِ منْ رفضِ **لوك** للأفكارِ الفطريةِ إلاَّ أنَّهُ كانَ يرى أنَّ اللغةَ مفطورةٌ في الإنسانِ قد زودَهُ **اللهُ** بها أي بالاستعدادِ لها، أمَّا اكتسابُ لغةٍ دونَ أخرى فهذا أمرٌ مُكتسبٌ واللغةُ وفقَ هذا المفهومِ لا تولدُ معَ الإنسانِ بلْ إنَّهُ يولدُ وهو علَى استعدادٍ للتعبيرِ بها عنْ أفكارِه، ولذا يُمكنُ القولُ بأنَّ اللغةَ مصنوعةٌ صنعَها الإنسان))5. القولُ أنَّ **لوك** منْ أنصارِ المذهبِ الوقفي الَّذي يعتقدُ أنَّ اللغةَ ذاتَ طبيعةٍ فطريةٍ لا ينسجمُ معَ الاتجاهِ العامِ لفلسفتِه الَّذي نحى إلى إنكارِ وجودِ الأفكارِ الفطرية، علَى اعتبارِ أنَّ العقلَ الإنسانيَّ يُولدُ وهو صفحةٌ بيضاء. إنَّ القولَ بفطريةِ اللغةِ يلزمُ عنْهُ بالضَّرورةِ القولُ بوجودِ أفكارٍ فطريةٍ في عقلِ الإنسانِ وهو ما لا يقبلُه **لوك**.

يتأكدُ الطَّابعُ الاصطلاحيُّ للغةِ منْ طريقةِ تفسيرِ **لوك** لعلاقةِ اللفظِ بالمعنى، حيثُ يذهبُ إلى أنَّ هذه العلاقةَ اتفاقيةٌ بينَ طرفي المُعادلةِ اللغويةِ المُتكلمُ والمُستمعُ: ((وذلكَ لأنَّ الإنسانَ إذا كانَ حُراً في أنْ يُسمِّي أفكارَهُ بالألفاظِ الَّتي يراها هو، فإنَّ هذه الكلماتِ أو الألفاظَ الَّتي اختارَها هو لكي تُعبِّرَ عنْ أفكارِه لن تُثيرَ نفسَ الأفكارِ في ذهنِ أيِّ شخصٍ آخرٍ إذا سمعَها، وبالتَّاليِّ فلنْ ينتقلَ معنى الفكرةِ منْهُ إلى غيرِه، وبالتَّاليِّ لنْ يكونَ الكلامُ لَهُ معنى في هذه الحالة ــ ولذلكَ يُريدُ **لوك** أنْ يُبينَ أهميةَ اتفاقِ النَّاسِ علَى رموزٍ صوتيةٍ مُعينةٍ أو ألفاظٍ تجعلُ التَّفاهمُ بينَهُم مُمكناً))6. يذهبُ **لوك** إلى أنَّ اللغةُ لو كانتْ وقفيةً كما يزعمُ البعضُ لكانتِ العلاقةُ بينَ اللفظِ والمعنى علاقةً وجوديةً تتسمُ بالضَّرورة، لكنَّها في الوقعِ علاقةٌ تاريخيةٌ يُمكنُ تجاوزُها منْ حيثُ المبدأ علَى الأقل، وذلكَ علَى الرُّغمِ منْ اعتراضِ **لوك** الَّذي يعتقدُ أنَّ اعتباطيةَ العلاقةِ بينَ اللفظِ والمعنى تؤدي إلى استحالةِ التَّواصلِ بينَ النَّاس، حيثُ يتعذرُ علَى المُتكلمِ ضمانُ وصولِ رسالتِه إلى المُستمعِ علَى اعتبارِ أنَّ هذا الأخيرَ لنْ يتسنى لَهُ معرفةُ وإدراكُ المعنى المُرادِ أو المقصودِ منْ قبلِ المُتكلمِ.

أمَّا ما يتعلقُ بطبيعةِ اللغةِ في ذاتِها فإنَّ **لوك** يؤكدُ علَى أنَّها ذاتَ طبيعةٍ حسية، يقولُ المُفكرُ العربيُّ **علي عبدالمُعطي** مُوضحاً ذلكَ: ((ليستِ اللغةُ سوى علاقاتٍ حسيةٍ مُعينةٍ ترمزُ أو تُشيرُ إلى الأفكارِ الموجودةِ في الذِّهن، وبالتَّاليِّ تُصبحُ الأفكارُ الَّتي تُشيرُ إليها الألفاظُ هي الدَّلالةُ الحقيقيةُ المُباشرةُ لها))7. ليسَ منَ المُستغربِ أنْ يقولَ **لوك** أنَّ اللغةَ ذاتَ طبيعةٍ حسية، فهذا القولُ ينسجمُ معَ الإطارِ العامِ لفلسفتِه والَّذي يؤكدُ علَى الطَّابعِ الحسِّي للغةِ والفكر، واللغةُ في النِّهايةِ عبارةٌ عنْ مجموعةٍ منَ الأصواتِ الحسيةِ الَّتي تُشيرُ إلى أفكارٍ بعينِها؛ بمعنى آخرٍ تُعدُّ اللغةُ علاقةَ وصلٍ بينَ الأفكارِ الموجودةِ في العقلِ والمُسمياتِ

الموجودة خارجهُ: ((كانَ هُناكَ اعتقادٌ قديمٌ بأنَّ الكلمةَ تُشيرُ إلى شيءٍ، فإذا قلتْ كلمةَ منضدةٍ ــ فهذا يعني أنَّها تُشيرُ إلى الشّيءِ الموجودِ في الواقعِ ــ أي المنضدةِ ــ وقد أتى **لوك** فغيرَ هذا الاعتقادَ وأكدَ أنَّ الكلمةَ لا تُشيرُ إلى الشّيءِ الواقعيِّ بقدرِ إشارتِها إلى الفكرةِ الموجودةِ في الذِّهنِ عنْ هذا الشّيءِ، ولذا فالكلمةُ في دلالتِها المُباشرةِ الأوليةِ ــ لا تُشيرُ إلاَّ إلى الأفكارِ الموجودةِ في ذهنِ قائلِها، وعلَى ذلكَ فالكلماتُ تكونُ بالنِّسبةِ **للوك** واضحةً بقدرِ الوضوحِ الموجودِ في الأفكارِ الَّتي ترمزُ لها هذه الكلماتُ، ولا يُمكنُ أنْ تزيدَ عليها))[8]. ما يهمُ في التَّصورِ الَّذي يُقدمُهُ **لوك** لطبيعةِ العلاقةِ بينَ اللفظِ والمعنى قطيعتَهُ معَ تصورٍ سابقٍ رسمَ العلاقةَ بينَهُما، والَّذي أكد علَى أنَّ علاقةَ اللفظِ بالمعنى علاقةٌ مُباشرةٌ، في المُقابلِ، اعتقدَ **لوك** ــ وهُنا مكمنُ جدته ــ علَى أنَّ الكلمةَ لا ترتبطُ ارتباطاً مُباشراً بالمعنى، فهي لا تُشيرُ إلى المُسمياتِ الموجودةِ في الواقعِ الخارجيِّ بلْ إلى الفكرةِ الَّتي كونَها العقلُ عنْها عبرَ تجريدِ الانطباعاتِ الجزئيةِ.

انعكسَ التَّصورُ الحسِّيُّ للغةِ عنْدَ **لوك** علَى طبيعةِ وشكلِ الوظائفِ الَّتي تؤديها، وفي الإجمالِ يرسمُ **لوك** وظيفتانِ للغةِ: ((هُما ــ التَّذكرُ والتَّعبيرُ عنِ الأفكارِ، وحيثُ إنَّ اتباعَ المذهبِ التَّجريبيِّ وعلَى رأسهم **لوك** يؤمنونَ بأولويةِ الوجودِ أوَّلاً ثمَّ التَّعبيرِ عنْهُ ثانيةً، ولمَّا كانتِ اللغةُ تُعبِّرُ عنِ الفكرِ أو المعرفةِ الَّتي تُعبِّرُ عنِ الواقعِ، ومنْ ثمَّ فإنَّها تُعبِّرُ عنِ الواقعِ بشكلٍ غيرِ مُباشرٍ))[9]. تُعدُّ هذه الوظائفُ امتداداً لنظريةِ المعرفةِ والفكرِ عنْدَ **لوك**، ممَّا يُكرسُ الاعتقادَ أنَّهُ يؤمنُ بوجودِ علاقةِ تداخلٍ وتطابقٍ بينَ نظريةِ الفكرِ وطبيعةِ اللغةِ، فإذا كانَ جوهرُ المعرفةِ يكمنُ في تلقي الانطباعاتِ الخارجيةِ ثم إعادةِ تركيبِها في صورةِ أفكارٍ ذهنيةٍ وما يعقبُ ذلكَ منْ ظواهرِ إدراكيةٍ أُخرى كالتَّذكرِ، والتَّخيلِ، كذلكَ هو الأمرُ معَ اللغةِ الَّتي تهدفُ إلى التَّعبيرِ عنِ الأفكارِ الَّتي استخلصَها العقلُ أو الفكرُ منَ الانطباعاتِ الحسِّيةِ، كما أنَّ منْ وظائفِ اللغةِ إعادةُ استعادةِ الأفكارِ بعدَ إيداعِها في الذَّاكرةِ في صورةِ مُسمياتٍ، فيكفي في هذهِ الحالةِ أنْ يُذكرَ اسمُ الشّيءِ ــ اللغةِ ــ حتَّى تحضرَ صورتُهُ أو فكرتُهُ في العقلِ.

وحتَّى يتسنى للغةِ أداءُ وظائفِها علَى النَّحوِ الأمثلِ، اشترطَ **لوك** ضرورةَ إلتزامِ الدِّقةِ عنْدَ استخدامِ ألفاظِها: ((يرى **لوك** ضرورةَ مُراعاةِ بعضِ الاعتباراتِ أثناءَ استخدامِنا ألفاظَ اللغةِ وأهمها:"أ" أنْ يُشيرَ اللفظُ ــ مهْما كانَ استخدامُنا لَهُ ــ إلى نفسِ الفكرةِ بكُلِّ دقةٍ. "ب" أنْ يُشيرَ اللفظُ بكُلِّ دقةٍ إلى نفسِ الفكرةِ بالنِّسبةِ للمُتكلمِ منْ جهةٍ والسَّامعِ منْ جهةٍ أُخرى))[10]. يعتقدُ **لوك** أنَّ اللغةَ وحتَّى تؤدي وظيفتَها علَى الشَّكلِ الأمثلِ لابُدَّ وأنْ يحصلَ توافقٌ بينَ طرفي المُعادلةِ اللغويةِ؛ المُتكلمِ والسَّامعِ حولَ دلالةِ ومعانِ الألفاظِ والكلماتِ، بحيثُ تُشيرُ عنْدَ كليهما إلى المعنى ذاتهُ، إلى جانبِ ذلكَ، ولتؤدي اللغةُ وظيفتَها يُشترطُ وجودُ علاقةِ تطابقٍ بينَ الكلمةِ والشّيءِ الَّذي تُشيرُ إليهِ، فما أنْ يسمعَ السَّامعُ اللفظَ حتَّى تتولدَ عنْدَهُ الفكرةُ ذاتَها أو الصُّورةُ الذِّهنيةُ ذاتَها والَّتي وضعتِ الكلمةُ أو اللفظُ للإشارةِ إليها.

بعدَ رسمِ موقفهِ منْ طبيعةِ ووظائفِ اللغةِ، انخرطَ **لوك** في مُعالجةِ بعضِ القضايا اللغويةِ الَّتي يُمكنُ أنْ يُستشفَ منْها طبيعةُ العلاقةِ الَّتي تربطُ اللغةُ بالمعرفةِ والفكرِ في فلسفتهِ، ولعلَّ منْ أهمِّ هذه القضايا علاقةُ اللفظِ بالمعنى: ((إنَّ الألفاظَ العامةَ تُقابلُ "جواهرَ اسميةً"، أفكارٍ ذهنيةٍ مُجردةٌ لا نستطيعُ تشكيلَها بأنفسنا. الكُليةُ والشُّموليةُ، فيما يقولُ، "لا تنتمي إلى الوجودِ الحقيقيِّ للأشياءِ"؛ بلْ هي مُبتكراتُ ومخلوقاتُ الفهمِ، أبدعَها كي يستعملَها"))[11]. يذهبُ **لوك** إلى أنَّ الألفاظَ الكُليةَ أو العامةَ تُعبِّرُ عنْ أفكارٍ مُجردةٍ تتسمُ بالشُّموليةِ؛ أي أنَّها لا تمتلكُ وجوداً حقيقياً؛ يقومُ العقلُ بابتكارِها لاستعمالِها للفهمِ، يُقرُّ **لوك** أنَّ الوجودَ الحقيقيَّ هو وجودٌ للجواهرِ الجُزئيةِ والفرديةِ، في حينِ أنَّ الألفاظَ الكُليةَ لا تحوزُ علَى مثلِ هذا الوجودِ: ((يقولُ **لوك** إنَّ كُلَّ الأشياءِ الموجودةِ هي جزئيةٌ، لكننَّا بتجريدِ أفكارِنا عنِ الأشياءِ، وبفصلِها عنِ القسماتِ الدَّقيقةِ والتَّفاصيلِ الجزئيةِ فإنَّنا نُكوِّنُ أفكاراً عامةً. وبهذا الطَّريقِ نصلُ إلى تكوينِ الأفكارِ المُجردةِ العامةِ الَّتي نستخدمُها في البرهنةِ العقليةِ))[12]. تُعدُّ ألفاظُ اللغةِ انعكاساً لما هو موجودٌ في الواقعِ، خاصةً إذا أُخذَ بعينِ الاعتبارِ الطَّريقةُ الَّتي يتحصلُ بها الإنسانُ علَى المعرفةِ الَّتي تلجُ العقلَ في صورةِ انطباعاتٍ أوليةٍ، وبما أنَّهُ لا وجودَ في الواقعِ إلاَّ للجُزئيِّ فإنَّ الانطباعاتِ تعكسُ الواقعَ فقط: ((إنَّ الشَّيءَ الَّذي يجبُ أنْ ندخلَهُ في اعتبارِنا بعدَ ذلكَ، هو كيفَ تتكونُ الألفاظُ الكُليةُ ــ لأنَّهُ طالما كانتْ كُلُّ الأشياءِ الموجودةِ ــ جزئيةً فقط ــ كيفَ نصلُ إلى الحدودِ الكُليةِ، أو أينَ نجدُ هذه الموجوداتِ الطَّبيعيةَ الكُليةَ الَّتي منَ المفروضِ أنْ تُشيرَ إليها هذه الحدودُ))[13]. أمَّا عنِ الآليةِ الَّتي يُكوِّنُ بها العقلُ الألفاظَ الكُليةَ فهي تتشكلُ باعتبارِها تنصُّ أو تُشيرُ إلى مجموعةٍ منَ الصِّفاتِ الَّتي قامَ الإدراكُ باستخلاصِها منْ مجموعِ الانطباعاتِ الحاصلةِ فيه: ((ومنْ بينِ الحدودِ الَّتي يقولُ **لوك** أنَّها اكتسبتْ بعضَ المعنى منْ عمليةِ التَّجريدِ هذه ــ اللفظُ: "جوهرٌ" ... وحينَ حللَّ معناهُ ميّزَ بينَ ما سماهُ "الماهيةَ الأسميةَ" ... وبينَ "الماهيةِ الواقعيةِ" ... للجوهرِ))[14]. يدلُ لفظُ الجوهرِ عنْدَ **لوك** على ماهيةٍ اسميةٍ، باعتبارِ أنَّ لفظَ الجوهرِ يفتقدُ للوجودِ

الواقعيِّ، لِهذا السَّبب لا يُمكنُ اعتبارُهُ ماهيةً واقعيةً، يتضحُ هذا الأمرُ أكثرَ مِنْ تحليلِ **لوك** لِلماهيةِ الاسميةِ يقولُ: ((أمّا الماهيةُ الاسميةُ فهي الفكرةُ العامةُ المُجردةُ للجوهرِ وقد تكونتْ بتجريدِ المجموعةِ الأساسيةِ مِنَ السِّماتِ "الصِّفاتِ" الَّتي توجدُ دائماً معاً. وفي مُقابلِ ذلكَ نجدُ أنَّ الماهيةَ الواقعيةَ هي طبيعةُ الموضوعِ الَّتي تُفسِّرُ كونَهُ يملكُ الصِّفاتِ الَّتي يملكُها. إنَّ الماهيةَ الاسميةَ تصفُ الخواصَ الَّتي للجواهرِ، بينَما الماهيةُ الواقعيةُ تُفسِّرُ لِمَاذا هو يملكُ هذه الخواص))[15]. حاولَ **لوك** توضيحَ مفهومِ الماهيةِ الاسميةِ بِمُقابلتِه ومُقارنتِه بِمفهومِ الماهيةِ الواقعيةِ عملاً بِالقولِ: "بِضدِها تُعرفُ الأشياءُ"، مِنْ هذا المُنطلقِ إذا كانتِ الماهيةُ الواقعيةُ تُشيرُ إلى الصِّفاتِ الَّتي يمتلكُها الشَّيءُ الواقعيُّ، لِهذا هي تُعنى بِتفسيرِ العلاقةِ الَّتي تربطُ بينَ الوجودِ الواقعيِّ بِالصِّفاتِ، في المُقابلِ، تُشيرُ الماهيةُ الاسميةُ إلى الصِّفاتِ العامةِ المُجردةِ للجوهرِ، لذا، يقتصرُ دورُ الماهيةِ الاسميةِ عَلَى وصفِ مجموعِ الصِّفاتِ الَّتي ترتبطُ بِالجوهرِ الكُلِّيِّ، مَعَ العلمِ أنّ هذه الصِّفاتِ يتمُّ الحصولُ عَليها عبرَ عمليةِ تجريدٍ يقومُ بِها العقلُ مَعَ الصِّفاتِ الجُزئيةِ والَّتي تصلُ إليه في صورةِ انطباعاتٍ فرديةٍ، يقومُ العقلُ باستخلاصِ القاسمِ المُشتركِ بينَها في صورةِ ألفاظٍ عامةٍ كُليةٍ: ((إنَّ الألفاظَ تُصبحُ كُليةً عامةً ــ بِجعلِها علاماتٍ لِأفكارٍ عامةٍ، والأفكارُ تصبحُ أفكاراً عامةً ــ حينَ نفصلُ عَنْها كُلَّ ظروفِ الزَّمانِ والمكانِ وأيِّ أفكارٍ أُخرى يُمكن أنْ تُحددَها وتقصرَها عَلَى هذا الموجودِ الجُزئيِّ أو ذاك. وعَنْ طريقِ هذا التَّجريدِ ــ تُصبحُ الفكرةُ قادرةً عَلَى أنْ تُمثلَ أكثرَ مِنْ فردٍ واحدٍ ــ كُلٌّ مِنْها مُتماثلٌ مَعَ الفكرةِ المُجردةِ (الَّتي نُسميها) بِالنَّوعِ))[16]. مَا يُلاحظُ على هذا التَّفسيرِ ــ لِطريقةِ تكوينِ الألفاظِ العامةِ الكُليةِ ــ أنَّهُ مُستعارٌ مِنَ الفلسفةِ **الأرسطية** الَّتي تذهبُ إلى أنَّ الألفاظَ العامةَ تجريدٌ لِلوجودِ الجُزئيِّ، خاصةً إذا أخذنا بِعينِ الاعتبارِ أنَّ **أرسطو** يؤمنُ بِالوجودِ الجُزئيِّ الفرديِّ، في حينِ أنَّ وجودَ الماهياتِ العامةِ هو وجودٌ عقليٌّ ذهنيٌّ فقط، لِهذا السَّببِ لا نجدُ جديداً في تفسيرِ **لوك** لِآليةِ نشأةِ وتكوينِ الألفاظِ الكُلية، فكلُّ مَا جاءَ بِه هو تكرارٌ لِمَا قالَهُ **أرسطو** قديماً، وعِنْدَ هذه النُّقطةِ تُشخصُ نقاطُ التَّواصلِ بينَ فلسفةِ **لوك** والفلسفةِ الوسيطةِ الَّتي هيمنَ عَليها **أرسطو طاليس**.

عَلَى الرُّغمِ مِنْ أنَّ **لوك** فيلسوفٌ تجريبيٌّ يؤمنُ بِالوجودِ الجُزئيِّ إلاَّ أنَّهُ يُقرُّ بِتعذرِ واستحالةِ الاستغناءِ عَنِ الألفاظِ الكُليةِ، بِالنَّظرِ إلى الدَّورِ المُهمِ الَّذي تقومُ بِه في عمليةِ الإدراكِ والتَّفكيرِ: ((مِنَ المُستحيلِ أنْ نُسمي كُلَّ شيءٍ من الأشياءِ الجُزئيةِ الموجودةِ في الطَّبيعةِ باسمٍ خاصٍ ــ لأنَّ قدرةَ الإنسانِ العقليةِ لا تسمحُ لَهُ باستيعابِ أو تذكرِ أسماءِ كُلِّ الأشياءِ الجُزئيةِ الموجودةِ ــ مثلُ اسمِ كُلِّ شجرةٍ أو طائرٍ أو حيوانٍ يراهُ))[17]. لِتعذرِ تسميةٍ واستيعابِ أسماءِ كُلِّ الجزئياتِ تمَّ التَّوافقُ عَلَى تسميةِ كُلِّ مجموعةٍ مِنَ الموجوداتِ الجُزئيةِ بِاسمٍ عامٍ كُليٍّ واحدٍ يُصفُها بِصفتِها يُعرفُ بِالنوعِ أو الجنسِ، يُساعدُ عَلَى تصنيفِ الموجوداتِ، ومِنْ ثمّ عَلَى إدراكِها، ويتمُّ هذا الأمرُ عَنْ طريقِ التَّجريدِ، وهو ما قامَ بتوضيحه المنطق القديم: ((نلحظُ في تجربتِنا كثيراً مِنَ الأشياءِ، الَّتي تُشبهُ بعضُها بعضاً في عددٍ مِنَ الخصائصِ والأحوالِ. وبفضلِ التَّجريدِ نستخلصُ الخصائصَ المُشتركةَ بينَ الجزئياتِ، ونُسقطُ الأعراضَ الذَّاتيةَ والثَّانويةَ، فنحصلُ عَلَى المعاني الكُلية، الَّتي ندلُ عَليها بِلفظٍ واحدٍ، يُغنينا عَنِ ألفاظٍ لا تُحصى لِلدلالةِ عَلَى كُلِّ جزئيٍ. وعَلَى هذا النَّحوِ تتكونُ المعاني العامةُ: "الإنسانُ" و"الحيوانُ" و"النَّباتُ" و"الكائنُ الحيُّ" ... إنَّ المعانيَّ العامةَ جميعُها تأتي نتاجاً لِلعقلِ، وتقومُ عَلَى تشابهِ الأشياءِ. وعَلَى هذا الأساسِ يبني **لوك** نظريتَهُ في المعرفةِ وأشكالِها))[18]. يُساعدُ التَّجريدُ العقلَ أو الفكرَ عَلَى اختزالِ مظاهرِ الوجودِ في أقلِّ عددٍ مُمكنٍ مِنَ الألفاظِ لِيكونَ بِالإمكانِ إدراكُهُ وفهمُهُ: ((والألفاظُ الكُليةُ هيَ الَّتي لا تُشيرُ إلى جزئياتٍ مُعينةٍ بِالذَّاتِ في الواقعِ، إنَّما تُشيرُ إلى أفكارِنا عَنْ مجموعةٍ مِنَ الصِّفاتِ الأساسيةِ المُشتركةِ في مجموعةٍ مِنَ الجُزئياتِ مثلُ لفظِ "إنسانٍ" وغيرِه مِنَ الألفاظِ الَّتي ترمزُ لِأفكارٍ كُليةٍ مُجردةٍ. ويُلاحظُ **لوك** أنَّ أغلبَ ألفاظِ اللغةِ كُليةٌ وليستْ جزئيةً. بِالرُّغمِ مِنْ أنَّ كُلَّ الأشياءِ الموجودةِ في الطَّبيعةِ جزئيةٌ وليستْ كُليةً))[19]. وجودُ الألفاظِ والمفاهيمِ الكُليةِ هو وجودٌ وظيفيٌّ، فبِها يتمُّ اختزالُ الموجوداتِ الجُزئيةِ المُتكثرةِ إلى عددٍ مِنَ الصِّفاتِ العامةِ: ((وحتَّى إذا كانَ هذا مُمكناً واستطاعَ الإنسانُ أنْ يحفظَ ويتذكرَ جميعَ أسماءِ الجُزئياتِ الموجودةِ في الطَّبيعةِ ــ فإنَّ ذلكَ يُصبحُ شيئاً عديمَ القيمةِ والفائدةِ لِأنَّهُ لنْ يخدمَ الغرضَ الرَّئيسيَّ مِنْ أيِّ لُغةٍ مِنَ اللغاتِ، وذلكَ لأنَّ النَّاسَ في تلكَ الحالةِ سيجمعونَ أكواماً مِنَ أسماءِ الجُزئياتِ الَّتي لا تُساعدُهم عَلَى توصيلِ أفكارِهم إلى الغيرِ ــ لِأنَّهُ مِنَ الجائزِ أنْ أستخدمَ أنَا ألفاظاً جزئيةً تُشيرُ إلى مُوجوداتٍ جزئيةٍ مُعينةٍ لا حظتُها ووقعتْ في خبرتيِّ ــ فرمزتُ لها بِرمزٍ مُعينٍ (أ) ولفظٍ خاصٍ، ومَعَ ذلكَ فهُناكَ أشخاصٌ آخرونَ كثيرونَ لمْ يعرفوا هذا المُدركَ الجزئيَّ ولمْ يقعْ في خبرتِهم أو مُلاحظتِهم ــ ولِذلكَ فإنَّ كلاميَّ لنْ يكونَ مفهوماً لديهم))[20]. يُستخلصُ مِنْ هذا الموقفِ مِنَ الألفاظِ الكُليةِ أنَّ وجودَها ضروريٌ لِتقومَ اللغةُ بِوظيفتِها، مِمَّا يعني أنَّها جزءٌ أساسيٌ مِنْ بنيةِ اللغةِ الأساسيةِ، فإذا كانتْ عمليةُ الإدراكِ الأولى لا تتمُّ بِمعزلٍ عَنِ الانطباعاتِ الجُزئيةِ،

كذلكَ هو الأمرُ مَعَ الألفاظِ الكُليةِ الَّتي يتعذرُ إنجازُ مطلبِ التَّواصلِ بينَ النَّاسِ في حالِ عدمِ وجودِها.

يتكرسُ الحضورُ **الأرسطيُّ** في فلسفةِ **لوك** اللغويةِ منْ بوابةِ المنطقِ، فعلى سبيلِ المثالِ، يتبنى **لوك** طريقةَ سلفِه **أرسطو** في تعريفِ الألفاظِ أو الكلماتِ: ((التَّعريفُ هُو "إظهارٌ لمعنى الكلمةِ بواسطةِ عباراتٍ أُخرى غيرَ مُرادفةٍ لها. وذلكَ لإيضاحِ دلالتِها ــ أي الفكرةِ الَّتي تُشيرُ إليها أو ترمزُ لها هذه الكلمةُ بالنِّسبةِ للسامعِ ــ كما هي عِنْدَ المُتكلمِ))[21]. للوهلةِ الأولى تبدو هذه الطَّريقةُ في تعريفِ الكلماتِ مُحاكاةً للطَّريقةِ السَّائدةِ في القواميسِ والمعاجمِ اللغويةِ، غيرَ أنَّ شيئاً منَ التَّدقيقِ يُوضحُ التَّشابهَ بينَ طريقةِ **لوك** وطريقةِ التَّعريفِ الَّتي أسسَها **أرسطو** في منطقِه الَّذي كانَ يُعرفُ الكلماتِ والمفاهيمَ بالاستعانةِ بكلماتٍ أُخرى، وعِنْدَها إمَّا أنْ يكونَ التَّعريفُ تاماً أو ناقصاً، فعَلى سبيلِ المثالِ، يُعرفُ الإنسانُ عَلَى أنَّهُ حيوانٌ ناطقٌ ــ تعريفٌ تامٌ ــ أو حيوانٌ ضاحكٌ ــ تعريفٌ ناقصٌ ــ تبني **لوك** لطريقةِ **أرسطو** في التَّعريفِ يُدلِّلُ مرةً أُخرى عَلَى حجمِ الحضورِ **الأرسطيِّ** في فلسفةِ **لوك** الجديدةِ.

مَعَ مُشايعةِ **لوك** لـ**أرسطو** في طريقةِ التَّعريفِ إلاَّ أنَّهُ اختلفَ مَعَهُ في الموقفِ منَ الأفكارِ البسيطةِ، والَّتي اعتقدَ بتعذرِ تعريفِها لبساطتِها يقولُ: ((وأسماءُ الأفكارِ البسيطةِ لا يُمكنُ تعريفُها لأنَّ الأفكارَ البسيطةَ لا تتكونُ في ذهنِ الإنسانِ إلاَّ بواسطةِ تأثيرِ الموجوداتِ الطَّبيعيةِ في حواسِنا بحيثُ تكونُ انطباعاتٍ حسيَّةً مُعينةً تؤثرُ في الذِّهنِ ــ فتتكونُ عَنْهَا صورةٌ ذهنيةٌ. وبالتَّاليِ فكرةٌ بسيطةٌ عَنْهَا نرمزُ إليها بلفظٍ مُعينٍ أو بعبارةٍ خاصةٍ))[22]. سيكونُ لهذا الموقفِ منَ الأفكارِ البسيطةِ دورٌ أساسيٌ في الفلسفةِ اللغويةِ المُعاصرةِ، خاصةً تلكَ المُتعلقةِ بالفلسفةِ التَّحليليةِ عِنْدَ كُلٍّ منْ **برتراند رسل**[23] **ولودفيج فيتجنشتين**[24]، يذهبُ **لوك** إلى أنَّ الأفكارَ البسيطةَ أنعكاسٌ للانطباعاتِ البسيطةِ الَّتي تحصلُ في الفكرِ أو العقلِ، وعِنْدَ مُحاولةِ تسميتِها أو التَّعبيرِ عَنْهَا يتمُّ ذلكَ بالاعتمادِ على ألفاظٍ وكلماتٍ تُشيرُ وبشكلٍ مُباشرٍ إلى معانِ تلكَ الأفكارِ، فإذا رغبَ شخصٌ في تبليغِ آخرٍ معنى تلكَ الفكرةِ قامَ بذلكَ عبرَ لفظٍ مُتوافقٍ عَلَيهِ ودونَ الاستعانةِ بكلماتٍ أو ألفاظٍ أُخرى.

أمَّا عَنْ حجمِ تأثيرِ **لوك** وحضورِه في الفلسفةِ المُعاصرةِ فهو أمرٌ بينٌ ومنَ السَّهلِ التَّدليلِ عَلَيهِ، يذهبُ البعضُ إلى عدِّه رائدَ الاتجاهِ التَّجريبيِّ الَّذي نجدَ امتدادتَهُ في الفلسفةِ الوضعيةِ: ((يُمكنُ أنْ نعدَّ **لوك** رائداً آخرَ للوضعيةِ التَّجريبيةِ، خصوصاً في ميدانِ نظريةِ المعرفةِ، منْ حيثُ أنَّهُ يُخرجُ العامَّ منَ الخاصِ ويُدركُ العقلَ عَلَى أنَّهُ لوحةٌ بيضاءُ وأنَّ الحياةَ النَّفسيةَ كُلَّهَا حركةٌ منَ العناصرِ البسيطةِ تجري تبعاً لقوانينَ مُحددةٍ، وقولُه: "لا شيءَ في العقلِ لم يكُنْ منْ قبلُ في الحسِّ" يؤدي بالضَّرورةِ إلى إنكارِ أنْ يكونَ للباطنِ والحياةِ الرُّوحيةِ بوجهٍ عامٍ طابعٌ نسيجٍ وحده))[25]. شكلتْ بعضُ تحليلاتِ **لوك** لعددٍ منَ القضايا والظَّواهرِ الفلسفيةِ حجرَ الزَّاويةِ لفلسفاتٍ مُعاصرةٍ، خاصةً تلكَ المُتعلقةِ بموضوعِ اللغةِ، فإنكارُهُ للأفكارِ الفطريةِ وتأكيدُهُ عَلَى الطَّابعِ الحسِّي للغةِ وجدَ لَهُ أنصاراً في الفلسفةِ الوضعيةِ الَّتي اعتمدتْ معيارَ التَّحققِ التَّجريبيِّ للتأكدِ منْ معانِ ودلالةِ الكلماتِ.

اللغةُ والإرثُ المدرسيُّ

لعبتْ فلسفةُ اللغةِ دوراً كبيراً في تمكينِ **لوك** من رسمِ ملامحِ فلسفتِه، فبحكمِ الطَّابعِ الواقعيِّ الحسيِّ للدلالةِ عنده، والذي انعكسَ بدورِه على طبيعةِ الفلسفةِ الَّتي أسسها، لتكونَ بديلاً للفلسفةِ الوسيطةِ، التي كانت مهيمنة على الثَّقافةِ الغربيةِ.

قبلَ تأسيسِ فلسفتِه الجديدةِ كانَ على **لوك** بيانِ موقفِه منَ الفلسفةِ المدرسيةِ الوسيطةِ الَّتي نجحت في الهيمنةِ عَلَى الفكرِ الغربيِّ الوسيط، يُضافُ إلى ذلك، تحديدُ موقفِه منْ فلسفةِ **ديكارت** الَّتي تمكنتْ منَ القطيعةِ مَعَ الفلسفةِ المدرسيةِ الوسيطةِ، إلاَّ أنَّ قيامَ الأخيرِ بهذهِ القطيعةِ لنْ يكونَ مُلزماً للأولِ للأخذِ بكُلِّ مَا قالَ بِه، فعَلَى الرَّغمِ منْ قطيعةِ **ديكارت** مَعَ الفلسفةِ المدرسيةِ عَلَى صعيدِ نظريةِ الفكرِ إلاَّ أنَّهُ ظلَّ يحتفظُ في فلسفتِه ببعضِ العناصرِ والمُكوِّناتِ الوسطويةِ.

كانَ تأثيرُ **ديكارت** على **لوك** واضحاً فهو أشبهَ مَا يكونُ بالمطرقةِ الَّتي أيقضتَهُ منْ سُباتِه الفلسفيِّ الوسطويِّ، يقولُ واصفاً ومادحاً **ديكارت**: ((إنَّ **ديكارت** "هذا الجنتلمانُ الجديرُ بالأعجابِ الَّذي يحظى بِه" هو الَّذي أنقذهُ منَ الظَّلاميةِ (كما يبدو) الَّتي أشاعتَها المدرسيةُ **الأرسطيةُ** المُهيمنةُ آنذاك والَّتي تعرضَ لها طالباً. إنَّهُ مُدينٌ لَهُ "بالإلزامِ العظيمِ المُتعلقِ بالانعتاقِ منَ الطَّريقةِ غيرِ المفهومةِ في التَّحدثِ عَنِ الفلسفة"))[26]. ليسَ مُستغرباً أنْ تقومَ فلسفةُ **ديكارت** بهذا الدَّورِ المُهمِ في حياةِ **لوك** الفلسفيةِ والثَّقافيةِ، وذلكَ بالقياسِ إلى الدَّورِ والوظيفةِ الَّتي قامتْ بِها في الثَّقافةِ الغربيةِ الحديثةِ، فعن طريقِها تمتَ القطيعةُ مَعَ الفلسفةِ المدرسيةِ وتمَّ في المُقابلِ تأسيسُ تقليدٍ فلسفيٍ جديدٍ أسسَّ لأرضيةٍ فلسفيةٍ جديدةٍ انطلقتْ مِنْهَا جُلُّ الفلسفاتِ الحديثةِ، وعَلَى اختلافِ مرجعياتِها الفكريةِ الَّتي صدرتْ عَنْهَا، ولن يُستثنى منْ هذا التَّأثيرِ فلسفةُ **جون لوك**، الَّذي لمْ يكُنْ مُلزماً منَ النَّاحيةِ المعرفيةِ في الانطلاقِ منَ الإرثِ الفلسفيِّ الوسطويِّ الَّذي هيمنتْ عليه نظريةُ المعرفةِ **الأرسطية**.

تمكنَ **لوك** منْ تأسيس طريقة جديدة للتفلسف مكنتهُ منَ القطيعة معَ الفلسفة الوسيطة؛ بلْ وتجاوزها، فهو سارَ علَى النَّهج ذاته الَّذي ابتدأهُ كُلٌّ منْ **ديكارت ومالبيرانش** Nicolas Malebranche، يقولُ **تاتاركيفتش**27 مُوضحاً ذلكَ: ((وضعَ **لوك** برنامجاً ابيستيمولوجياً مكانَ البرنامجِ الميتافيزيقيِّ القديمِ، كانَ يرى بأنَّ مُهمةَ الفلسفة تكمنُ في معرفة مفاهيمنا عنِ الوجود لا الوجود نفسه ... كانَ مُقتنعاً بأنَّ الذِّهنَ البشريَّ لا يستطيعُ حلَّ القضايا الميتافيزيقية))[28]. أدركَ **لوك** أنَّ الفلسفةَ بصورتها الحاليةَ ــ الوسطويةَ ــ لنْ تتمكنَ منْ تحقيقِ تقدمٍ وتطورٍ في حال استمرارها في مُعالجة قضاياها القديمة والَّتي منْ أهمها القضايا الميتافيزيقيةَ بالطَّريقة ذاتها، يعودُ السَّببُ في ذلكَ إلى قصورِ العقلِ الإنسانيِّ في ولوجِ دائرة الميتافيزيقة، لهذا، لنْ يكونَ بمقدورِ الفلسفة تقديمُ مُقاربة أو حلول لهذه المشاكل، وعوضٌ عنْ ذلكَ كانَ لابُدَّ للعقلِ منَ الاتجاه إلى بحث قضايا المعرفة وما يتعلقُ بها منْ إشكالات أُخرى كإشكالية اللغة وعلاقتها بالفكر؛ ممَّا يعني أنَّ البحثَ الفلسفيَّ معَ **لوك** انتقلَ منَ البحث في قضية الوجود إلى بحث في قضية المعرفة، وهو تحولٌ سيكونُ لهُ أثرهُ البين في الخطاب الفلسفيِّ المُعاصر.

يذهبُ المُفكر العربيُّ **عزمي إسلام** إلى الاعتقاد بأنَّ دورَ **لوك** في تاريخ الفلسفة الغربية الحديثة يَعدلُ منْ حيثُ القيمة الفلسفية والتَّاريخية الدَّورَ الَّذي قامتْ به فلسفةُ **ديكارت**، يقولُ عنْدَ بيانه لجوانب الجدة والأصالة في فلسفة **لوك**: ((كانَ أوَّلُ منْ وضعَ مُشكلةَ المعرفة الإنسانية في تاريخِ الفكرِ الفلسفيِّ موضعَ البحثِ المُستقل المُنظمِ في كتابه "مقالةٌ في العقل البشريِّ" الَّذي يُعتبرُ بمثابة أوَّلَ مُحاولة جدية في هذا الصَّدد. وأنَّهُ كانَ بمثابة مرحلةَ انتقالٍ ضروريةٍ في تاريخِ الفكرِ الفلسفيِّ في القرنِ السَّابعِ عشر ــ تُترجمُ لروحِ العصرِ ــ وهي الرُّوحُ العلميةُ، في مُختلف الميادين سياسيةٌ كانتْ أو فلسفيةٌ))[29]. يعتقدُ **عزمي إسلام** أنَّ قيمةَ **لوك** الفلسفية تكمنُ في إعادة طرحه لقضية المعرفة في صيغة غير مألوفة منْ قبل، فتحتَ تأثيرِ فلسفة الأنوارِ ذاتِ الطَّابعِ والنَّزعة الإنسانية نحى إلى ضرورة إعادة طرحِ قضية المعرفة في إطارها الإنسانيِّ، وبهذا الطَّرحِ استطاعَ القطيعةَ مع الإرث الفلسفيِّ الوسطويِّ الَّذي كرسَ البُعدَ اللاهوتيَّ للمعرفة، وذلكَ تحتَ تأثيرِ الإرث الميتافيزيقيِّ **الأرسطيِّ**. تمكن **لوك** منْ طرحِ قضية المعرفة في سياقٍ مُستقلٍ بالاعتماد علَى عملية تحليل موضوعي لبنية وطبيعة نشاط الفكر الإنسانيِّ. لقد شكلَ موقفُ **لوك** من طبيعة اللغة الخلفيةُ الجديدةُ لمُقاربة موضوعِ المعرفة.

اعتمدَ التَّصورُ الوسطويُّ للمعرفة علَى فكرة أو مبدائيِّ أنَّ الإنسانَ يحصلُ علَى المعرفة عبرَ التَّأملِ العقليِّ، كانَ هذا التَّصورُ مُنْسجماً معَ التَّيارِ الماورائيِّ المُهيمنِ علَى الفكرِ الغربيِّ الوسطويِّ، ومعَ تأسيسِ وقيامِ الفلسفة الحديثة تمتِ القطيعةُ معَ هذه الصِّيغة للمعرفة، ويُعدُّ **لوك** منْ أشهرِ الفلاسفة الَّذينَ كانَ لهُم فضلُ بناءِ التَّصورِ الجديد: ((إنَّ مُعظمَ الفلاسفة الإنجليزِ منْذُ القرنِ السَّابعِ عشر، قد تمردوا علَى العقلِ وأنكروا عليه القُدرةَ علَى اكتشافِ الحقيقة وأقاموا المعرفةَ البشريةَ علَى أساسِ التَّجربة. وكانَ أوَّلُ منْ حملَ لواءَ هذه الحركة ضدَّ العقل الفيلسوفَ الإنكليزيَّ **جون لوك**))[30]. في سبيلِ تكريسِ تصوره الجديدِ للمعرفة انطلقَ **لوك** منْ أرضية مُختلفة عنْ تلكَ الَّتي انطلقَ منْهَا التَّصورُ الوسطويُّ للمعرفة، ففي مُقابلِ الطَّرحِ العقليِّ أسَّسَ المعرفةَ علَى أرضية تجريبية، علَى اعتبارِ أنَّ العقلَ يعجزُ في النِّهاية عنْ إدراكِ الحقيقة بمعزلٍ عنِ التَّجربة، الأرضية الجديدةُ للمعرفة كانت انعكاساً لتصوره لطبيعة اللغة.

يشترطُ **لوك** للحصولِ علَى معرفة يُمكنُ الوثوقُ بها ضرورةَ القيامِ بنشاطٍ قبليٍّ لتهيئة الظُّروف المُناسبة للقيامِ بالنَّشاطِ المعرفيِّ: ((إنَّ تهيئةَ السَّبيلِ إلى المعرفة لا يتمُّ إلاَّ بإزالة العوائقِ الَّتي تقفُ في طريقِ العقلِ البشريِّ لاكتسابِ المعرفة. ويُقسمُ **لوك** هذه العوائقَ إلى نوعين: لغويةٌ ومنهجيةٌ. فأمَّا العوائقُ اللغويةُ فتنشأُ منْ استخدامِ ألفاظٍ غامضة ومُبهمة تؤدي إلى ارتباكِ الذِّهنِ وتضليله. وأمَّا العوائقُ المنهجيةُ فبعضُهَا يقومُ في الاعتقادِ بأنَّ في العقلِ قواعدٌ أو مبادئٌ أساسيةٌ فطريةٌ قبليةٌ يُمكنُ أنْ نستخلصَ منْهَا المعرفةَ كُلَّهَا، وبعضُهَا يقومُ في اعتبارِ القياسِ المنطقيِّ الطَّريقةَ الصَّحيحةَ والوحيدةَ لاكتسابِ المعرفة))[31]. تتضحُ أهميةُ المسألة اللغوية في البناءِ الفلسفيِّ عنْدَ **لوك** منَ الدَّورِ السَّلبيِّ الَّذي يُمكنُ أنْ تقومَ به اللغةُ ــ كعائقٍ ــ في سبيلِ الحصولِ علَى المعرفة، ففي كثيرٍ منَ الأحيانِ يستخدمُ النَّاسُ ألفاظاً مُبهمةً وغيرَ واضحة تؤدي إلى حصولِ حالة منَ الإرباكِ الذِّهنيِّ تحولُ بينَهم وبينَ الحصولِ علَى معرفة يُمكنُ الوثوقُ فيهَا، إلى جانبِ العوائقِ اللغوية، يُقرُّ **لوك** بوجودِ نوعٍ ثانٍ منَ العوائقِ تحولُ هي الأُخرى دونَ الحصولِ علَى المعرفة الموثوقة، يتعلقُ هذا النَّوعُ منَ العوائقِ بالجوانبِ المنهجية، مثالُ ذلكَ الاعتقادُ بوجودِ أفكارٍ فطريةٍ في العقلِ يتمُّ إنتاجُ المعرفة بالرُّكونِ إليها، إلى جانبِ الاعتمادِ والتَّعويلِ علَى منهجِ القياسِ المنطقيِّ باعتباره الطَّريقةَ المُثلى الَّتي يُمكنُ إنتهاجُهَا في سبيلِ الحصولِ عليها، يُعدُّ النهجُ القياسيُّ منْ أهمِ الرَّكائزِ البنيويةِ في الفلسفة الوسيطة والَّذي ورثتْهُ بدورها منَ الفلسفة اليونانية وبالأخصِّ الأرسطية منْهَا، وهو منهجٌ تبثَ عجزهُ وعدمُ

إنتاجيته، لهذا، كانتْ سهامُ النَّقد المعرفيِّ موجهةً إليه، ما يُلاحظُ على العائقِ الثَّانيِّ أنه يحيلُ بدورِه إلى أهميةِ المسألةِ اللغويةِ، فهو يرى أن الاعتقادَ بوجودِ أفكارٍ فطريةٍ قد يحولُ دونَ قيامِ فلسفةٍ جادةٍ ومن أهمِ هذه الأفكارِ فكرةُ فطريةِ اللغةِ.

لم تقتصرْ عناصرُ الجدةِ في فلسفةِ **لوك** عندَ مسألةِ اللغةِ وارتباطِها بقضايا أُخرى كقضيةِ المعرفةِ، فإلى جانبِ تلك القضايا عُنيَّ بقضيةِ تحليلِ الفكرِ، يقولُ المُفكرُ العربيُّ **كريم متى** مُوضحاً ذلكَ: ((بالإضافةِ إلى ما امتازتْ به فلسفتُهُ منْ تحليلٍ للفكرِ وعملياتِه تحليلاً دقيقاً. وإلى ما قدمَهُ لمُعاصريه منْ دراساتٍ هامةٍ وقيمةٍ ــ خاصةً في التَّفرقةِ بينَ الصِّفاتِ الأوليةِ والصِّفاتِ الثَّانويةِ وتحليلِ فكرةِ الجوهرِ. وتحليلِ اللغةِ ... إلخ))[32]. تُعدُّ قضيةُ تحليلِ الفكرِ محورَ النَّشاطِ التَّأمليِّ لفلسفةِ **لوك**، باعتبارِها نقطةَ التَّمفصلِ أو القطيعةِ بينَهُ وبينَ الفلسفةِ المدرسيةِ، لا تقفُ قيمةُ هذهِ القضيةِ عَلَى طبيعةِ الفكرِ فحسبْ بل تتداخلُ معَ عددٍ منَ القضايا الأُخرى والهامةِ والَّتي منْ أهمِها العلاقةُ بينَ اللغةِ الفكرِ، خاصةً إذا أُخذَ بعينِ الاعتبارِ أنَّ موقفَهُ من اللغةِ وطبيعتِها سيُحددُ بدورِه آليةَ تحليلِه للفكرِ.

عَلَى الرُّغمِ منْ قطيعةِ **لوك** معَ الفلسفةِ المدرسيةِ في نقاطٍ وقضايا أساسيةٍ إلاَّ أنَّ البعضَ يميلُ للاعتقادِ بوجودِ نقاطِ لقاءٍ بينَهُما: ((حقيقةُ أنَّ **لوك** قد خرجَ عَلَى الفلسفةِ المدرسيةِ. ولكن ليسَ معنى هذا أنَّهُ لمْ يتأثرْ بها عَلَى الإطلاقِ. لأنَّهُ لمْ يبدأْ بدايةً جديدةً ولأنَّهُ لمْ يكُنْ ليستطيعَ ذلكَ. شأنُهُ في ذلكَ شأنَ أيِّ إنسانٍ آخرٍ لا بُدَّ وأنْ يتأثرَ بالعواملِ الثَّقافيةِ الَّتي ترسبتْ في نفسِه وذهنِه منْذُ طفولتِه. لذلكَ بدأَ **لوك** يبني فلسفتَهُ عَلَى التُّراثِ الفكريِّ الَّذي تعلمَهُ منْ قبلُ. وكانَ هذا التُّراثُ مدرسياً))[33]. جاءَ تأثرُ **لوك** بالفلسفةِ المدرسيةِ في سياقِ التَّأثرِ بالجوِ الثَّقافيِّ العامِ والَّتي احتلتِ الفلسفةُ المدرسيةُ حيزَهُ الأكبرَ، فعَلَى سبيلِ المثالِ لمْ يَكُنْ لَهُ مناصٌ منَ الانفتاحِ عَلَى التُّراثِ الفكريِّ المدرسيِّ الَّذي كانَ مُهيمناً عَلَى الفضاءِ التَّربويِّ الوسطويِّ إلى أنْ تمتِ القطيعةُ معَهُ معَ عصرِ النَّهضةِ الأوروبيةِ: ((وأهمُ هذه الأفكارِ الَّتي تأثرَ بها **لوك** منَ الفلسفةِ المدرسيةِ فكرةَ الجوهرِ ــ بمعنى أنَّهُ ذلكَ الموجودُ بذاتِه أو الواجبُ الوجودُ. باعتبارِه حاملاً لكُلِّ الخصائصِ والصِّفاتِ والأعراضِ وكذلكَ فكرةَ الماهيةِ أو الوجودِ الحقيقيِّ للشيْ ــ بمعنى أنَّها ذلكَ التَّركيبُ الدَّاخليُّ الحقيقيُّ للأشياءِ الَّذي تعتمدُ عليه كلُّ الصِّفاتِ الحسيةِ في وجودِها))[34]. شكلتْ فكرةُ الجوهرِ نقطةَ الوصلِ بينَ فلسفةِ **لوك** والفلسفةِ المدرسيةِ، فقد استقى مفهومَ الجوهرِ منَ التُّراثِ الفلسفيِّ المدرسيِّ، وهو ما يبدو منَ المفهومِ الَّذي يتبناهُ لمقولةِ الجوهرِ وهو المفهومُ ذاتُهُ السَّائدُ في الأدبياتِ الوسطويةِ، معَ العلمِ أنَّ مفهومَ الجوهرِ في الفلسفةِ المدرسيةِ يجدُ مرجعيتَهُ في الفلسفةِ الأرسطيةِ في مبحثِ المنطقِ.

حاولَ **لوك** تأسيسَ فلسفتِه الجديدةَ عَلَى أسسٍ معرفيةٍ صُلبةٍ تقطعُ معَ الأسسِ الَّتي قامتْ عَلَيها الفلسفةُ المدرسيةُ، رغبةً منْهُ في تجاوزِ الإرثِ الفلسفيِّ الوسطويِّ: ((يجمعُ **لوك** بينَ امبيريقيةٍ بخصوصِ الأفكارِ، بعقلانيةٍ بخصوصِ المعرفةِ. عِنْدَهُ، في غيابِ العقلِ ليسَ لدينا سوى مُعتقداتٍ، بحيثُ لا نحصلُ عَلَى معرفةٍ. "يتوجبُ أنْ يكونَ العقلُ الحكمَ والمُرشدَ النِّهائيَّ لكُلِّ شيءٍ"))[35]. لتأسيسِ فلسفتِه عَلَى أرضيةٍ معرفيةٍ مُتماسكةٍ كانَ عَلَى **لوك** ضرورةَ عقلنةِ أفكارِه، لهذا السَّببِ، نحى في فلسفتِه الجديدةِ إلى الجمعِ بينَ الطَّرحِ الامبيريقيِّ ــ الوضعيِّ ــ والطَّرحِ العقلانيِّ؛ يُشيرُ الطَّابعُ الانبيريقي إلى أنَّ استخدامَ ألفاظِ اللغةِ سيكونُ خاضعاً للمعيارِ الإمبيريقيِّ، أي أنَّ ألفاظَ اللغةِ لابدَّ وأنْ يكونَ لها محتوى واقعيٍّ لتكونَ ألفاظاً مشروعةً؛ مما يعنى أنَّهُ لنْ يقبلَ أيَّ مبادئَ إلاَّ في حالِ تسويغِها منْ قبلِ العقلِ تسويغاً امبيريقياً، لهذا يُقرُّ بتعذرِ الحصولِ عَلَى المعرفةِ بمعزلٍ عنِ العقلِ، معَ ملاحظةِ أنَّ مفهومَ العقلِ في هذا السِّياقِ يختلفُ عنِ المفهومِ السَّائدِ في الفلسفةِ المدرسيةِ.

بناءً عَلَى ما سبق، يُمكنُ الخلاصةُ إلى أنَّ فلسفةَ **لوك** جاءتْ امتداداً للفلسفةِ الغربيةِ في عصرِ النَّهضةِ، فقد كانَ معنياً ومُهتماً بمسألةِ إعادةِ بناءِ الفلسفةِ الغربيةِ والَّتي ما كانَ بالمقدورِ القيامُ بها إلاَّ بالقطيعةِ معَ الفلسفةِ المدرسيةِ الوسطويةِ، لهذا، وجبَ عليه تحديدَ موقفِه منَ التُّراثِ الفلسفيِّ الوسطويِّ.

ترتبَ عَلَى رسمِ **لوك** لموقفِه منَ الفلسفةِ المدرسيةِ مجموعةٌ منَ القضايا منْ أهمِها تحديدُ موقفِه منْ عددٍ منَ المسائلِ والَّتي منْ ضمنِها قضيةُ اللغةِ وطبيعتِها، إلى جانبِ قضيةِ الفكرِ وما يرتبطُ بها من قضايا أخرى كقضيةِ المعرفةِ.

التَّأصيلُ المعرفيُّ عِنْدَ لوك

لعبتْ نظريةُ المعرفةِ عِنْدَ **لوك** دوراً أساسياً ومحورياً في فلسفتِه التَّجريبيةِ، وهو ما يتضحُ منَ العلاقةِ العضويةِ الَّتي تربطُ فلسفةَ اللغةِ بنظريةٍ وبعددٍ منَ النَّظرياتِ والمواقفِ الأُخرى كنظريةِ المعرفةِ، وهو ما سنسعى إلى بيانِه في هذه الفقرةِ.

تمكنَ **لوك** عبرَ نظريةِ المعرفةِ منَ القطيعةِ معَ فلسفةِ العصورِ الوسطى، فعنْ طريقِها أسسَّ نظريةً جديدةً للمعرفةِ تعتمدُ عَلَى التَّجربةِ والإدراكِ الحسيِّ، لهذا، وقبلَ عرضِ أُسسِ وطبيعةِ نظريةِ المعرفةِ كانَ لابُدَّ لَهُ منْ إعادةِ رسمِ حدودِ الفكرِ والمعرفةِ منْ جديدٍ، خاصةً إذا أُخذَ بعينِ الاعتبارِ أنَّ نظريةَ الفكرِ والمعرفةِ في الفلسفةِ المدرسيةِ قامتْ عَلَى مبدأٍ بسطِ وتوسيعِ حدودِ قُدراتِ الفكرِ منْ جهةِ إدراكِ وإنتاجِ المعرفةِ،

يقولُ **لوك** واصفاً إشكاليةَ نظريةِ الفكرِ السَّابقةِ عَلَى نظريتِه: ((حينَ تمتدُ أبحاثُ النّاسِ إلى مَا هو فوق مُتناولِ قواهم ويتركونَ العنانَ لأفكارِهم تحومُ في تلكَ الأعماقِ الَّتي لا يستطيعونَ أنْ يجدوا فيها مُستقراً فلا عجبَ أنْ أثاروا تساؤلاتٍ ومُناقشاتٍ لا حلَ لهَا ولا تؤدي إلاَّ إلى تثبيتِ شكوكِهم وزيادتِها وتدفعُ بهم في الآخرِ إلى الشَّكِ المُطلق. وعلَيه ينبغي أنْ نُعينَ للمعرفةِ البَشريةِ حدوداً لا يجوزُ أنْ نتجاوزَهَا، وإلاَّ تناولنا حلَّ مَا لا يستطيعُ العقلُ البشريَّ بطبيعتِه حلَّهُ وضاعتْ جهودُنا سُدى))36. حصَرَ **لوك** نشاطَهُ الفلسفيَّ في رسمِ حدودِ الفكرِ والمعرفةِ، لإدراكِه أنَّ جُلَّ المشاكلِ تنشأُ لتعذرِ رسمِ الحدودِ بدقةٍ، وهذا من أحدِ آثارِ المنطقِ عليه، فعَلَى سبيلِ المثالِ، اتسمتْ نظريةُ المعرفةِ الوسيطةِ باتساعِ حدودِها، حيثُ اعتقدَ كثيرٌ منَ الفلاسفةِ وشايعَهُم في ذلكَ عددٌ منَ النَّاسِ أنَّ بمقدورِ العقلِ أو الفكرِ الإنسانيِّ أنَّ يلجَ مجالاتٍ تتجاوزُ في حقيقتِها حدودَ قُدراتِه، وكنتيجةٍ لتعاطيهم معَ مثلِ هذهِ المجالاتِ أثاروا عدداً منَ القضايا والإشكالاتِ الَّتي استعصى عَليهم فيما بعدُ حلَّهَا أو مُقاربتُهَا، ممَّا تولدَ عنها نزعةٌ شكليةٌ زعزعتِ الإيمانَ والاعتقادَ في إمكانيةِ الحصولِ عَلَى المعرفةِ، لذا، ولتجاوزِ مثلِ هذهِ الإشكالياتِ كانَ لابُدَّ للعقلِ أو الفكرِ ضرورةَ الالتزامِ بحدودٍ للمعرفةِ تتماشى معَ قُدراتِ الفكرِ الإنسانيِّ.

جاءَ الموقفُ السَّابقُ منْ طبيعةِ وحدودِ المعرفةِ أمتداداً لتصورِ **لوك** للغةِ وطبيعتِها، فبحكمِ الطَّابعِ الحسيِّ للدلالةِ سيكونُ عَلَى الفكرِ والمعرفةِ التَّقيدِ بهذهِ الحدودِ، فاللغةُ في نهايةِ المطافِ أداةٌ للفكرِ الَّذي لنْ يكونَ بمقدورِه القيامُ بنشاطِه بمعزلٍ عنها، عليه، فإنَّ تصورَ **لوك** لطبيعةِ اللغةِ مُرتبطٌ بلْ ومُتداخلٌ معَ تصورِه للمعرفةِ.

تنطلقُ نظريةُ الفكرِ عندَ **لوك** منْ مبدأٍ ومقولةِ الخبرةِ، والمُرادُ بالخبرةِ هُنا الحسُّ، يقولُ مُوضحاً ذلكَ: ((والواقعُ أنَّ أيَّ خبرةٍ في نظرِه لا بُدَّ أنْ ترتدَ في أساسِها الأوَّلَ إلى الإحساسِ وتعتمدَ اعتماداً مُباشراً عَلَى التَّجربةِ الحسيَّةِ. وهي ليستْ أكثرَ منْ تلقي الانطباعاتِ الحسيَّةِ ونقلِها إلى الصَّفحةِ البيضاءِ ــ أي العقلِ ... فأنَا حينَ أُدركُ أنَّ أمامِيَّ زهرةٍ حمراءَ مثلاً. فإنَّ هذا يعني أنَّني قد استقبلتُ عدَّةَ انطباعاتٍ حسيةٍ مُتتاليةٍ مثلِ شكلٍ ولونٍ ورائحةٍ ودرجةِ صلابةِ الزَّهرةِ بحيثُ تجمعتْ كلُها معَاً فكونتْ في ذهني صورةً لهذهِ الزَّهرةِ))37. يعتقدُ **لوك** أنَّ كُلَّ مَا يلجُ إلى العقلِ منْ معارفٍ وأفكارٍ مصدرُهَا الإحساسُ أو الخبرةُ الحسيَّةُ، فالعقلُ يتلقى مجموعةً منَ الانطباعاتِ الخارجيةِ عنْ طريقِ الحواسِّ، ومَا إنْ تلجَ فيه يقومُ بإعادةِ تركيبِها منْ جديدٍ في صورةِ أفكارٍ تُعبِّرُ وتعكسُ صورةَ الأشياءِ الخارجيةِ؛ ممَّا يعني أنَّ العقلَ لا يحملُ في داخلِه معارفاً مُسبقةً يُمكنُ الرُّكونُ إليها أو الاعتمادُ عَليها للتعاملِ معَ العالمِ الخارجيِّ.

لا يتضحُ مفهومُ الخبرةِ عندَ **لوك** بمعزلٍ عنْ مفهومِ التَّجربةِ الَّذي يُشيرُ إلى الانطباعاتِ الَّتي يتلقَاها العقلُ أو الفكرُ منَ الخارجِ عبرَ الحواسِ الخمسِ: ((تعني التَّجربةُ عندَ **لوك** ارتباطَ مجموعةٍ منَ الأفكارِ في الذِّهنِ بشيءٍ واحدٍ أو حاملٍ واحدٍ؛ بمعنى أنَّهُ إذا قيلتْ هذهِ الصِّفاتُ فإنَّهَا تدلُ عَلَى هذا الشَّيءِ، إنَّ ثمرةَ التُّفاحِ عَلَى سبيلِ المثالِ فاكهةٌ ذاتَ لونٍ أحمرٍ، ذاتَ شكلٍ مُستديرٍ، وطعمٍ حلوٍ، فإذا ذُكرَ لفظُ تفاحةٍ أمامي فإنَّ الذِّهنَ سريعاً مَا يلتقطُهُ ويرتبطُ فيهِ بأفكارِ الثَّمرةِ والاستدارةِ والشَّكلِ الأحمرِ والمذاقِ الحلوِ، وينطبقُ مثلُ ذلكَ عَلَى البُرتقالِ أو الزَّهرِ أو غيرِهمَا منَ الأشياءِ الَّتي نتناولُهَا في العالمِ الخارجيِّ))38. يُرادُ بالتَّجربةِ عندَ **لوك** مجموعَ الصِّفاتِ المُستقاةِ في صورةِ انطباعاتٍ خارجيةٍ تُحْمَلُ عَلَى جوهرٍ بعينِه، فعَلَى سبيلِ المثالِ، ينحلُ مفهومُ التُّفاحةِ إلى مجموعةٍ منَ الصِّفاتِ الَّتي تُطلقُ عَلَى الشَّيءِ الأحمرِ اللونِ والمُستديرِ المُتميزِ بحلاوةِ الطَّعمِ، لهذا السَّببِ، مَا أنْ يُذكرَ لفظُ التُّفاحةِ أمامَ إنسانٍ حتَّى تتولدُ عنْدَهُ فكرةُ التُّفاحةِ.

يبدو وللوهلةِ الأولى أنَّ وظيفةَ الفكرِ أو العقلِ عنْدَ **لوك** وظيفةٌ سلبيةٌ تقتصرُ عَلَى تلقي الانطباعاتِ الخارجيةِ فقط، يكونُ هذا الحكمُ صحيحاً إذا اقتصرَ دورُ العقلِ عَلَى هذهِ الوظيفةِ، في حينِ يذهبُ **لوك** إلى أنَّ للعقلِ وظيفةٌ أُخرى تتسمُ بطابعِها الإيجابيِّ: ((بالإضافةِ إلى النَّاحيةِ السَّلبيةِ الَّتي يقومُ فيها بتلقيِّ الانطباعاتِ الحسيَّةِ ــ وظيفةٌ أخرى إيجابيةٌ يقومُ فيها بربطِ هذهِ الانطباعاتِ الحسيَّةِ لتكوينِ صورةٍ ذهنيةٍ أو فكرةٍ عنِ المُدركاتِ الحسيَّةِ. ولذلكَ فتشبيهُ الصَّفحةِ البيضاءِ الَّذي شبَهَ بها **لوك** عقلَ الإنسانِ لا يكونُ صحيحاً إلاَّ إذا قصرنَا معناهُ عَلَى النَّاحيةِ السَّلبيةِ فقط. ثمَّ أضفنا إليه فاعليةَ التَّفكيرِ))39. يُفهمُ منْ هذا النَّصِّ أنَّ دورَ العقلِ لا يتوقفُ عَلَى تلقي الانطباعاتِ الخارجيةِ فقط؛ فمنْ وظائفِ العقلِ جمعُ الانطباعاتِ لتكوينِ وتشكيلِ صورةٍ ذهنيةٍ عنِ المُدركاتِ الحسيَّةِ الخارجيةِ، عَلَى اعتبارِ أنَّ الحواسَّ تنقلُ الانطباعاتِ الخارجيةَ مُشتتةً ومُفككَّةً، فيقومُ العقلُ بإعادةِ تركيبِها وجمعِها منْ جديدٍ، وفي بعضِ الأحيانِ وبالتَّعويلِ عَلَى المُخيلةِ يُنتجُ أفكاراً أو صوراً ذهنيةً خياليةً لا أساسَ لهَا في الواقعِ.

بمَا أنَّ إنتاجَ الأفكارِ منْ وظائفِ الفكرِ كانَ عَلَى **لوك** رسمُ مفهومِ الفكرةِ، ويُشترطُ في هذا المفهومِ أنْ يكونَ مُنسجماً معَ طبيعةِ اللغةِ وموضوعِ المعرفةِ، يقولُ: (("الفكرةُ هي موضوعُ الفكرِ"، فالفكرةُ هي كُلُّ مَا نُفكرُ فيه. فهي ليستْ مكتوبةً

في العقل لكنَّ الفكرةَ تظهرُ في الفكرِ كموضوعٍ للتفكيرِ، أو موضوعٍ نفكرُ فيه. والفكرةُ هي التي تُحركُ العقلَ أو الفهمَ الذي يقومُ بدراستِها وتحليلِها. والفكرُ عندَما يستلمُ فكرةً معينةً يكونُ في حالةِ وعيٍ بها ويُدركُ بأنَّهُ يُفكرُ، ومنْ هُنا تكونُ الفكرةُ هي الموضوعُ الذي نُفكرُ فيه باستعمالِ وعينا الفكريِّ))40. يتسمُ مفهومُ الفكرةِ عندَ **لوك** بالبساطةِ فهو يتحددُّ على اعتبارِه موضوعاً للفكرِ؛ بمعنى أنَّ مفهومَ الفكرةِ عندَه يتمُّ رسمُهُ وتحديدُه وظيفياً، حيثُ يُشيرُ مفهومُ الفكرةِ إلى موضوعِ الفكرِ الذي يقومُ بالتَّأملِ فيها.

يعتقدُ **لوك** أنَّ التَّجربةَ الفكريةَ الإنسانيةَ تعتمدُ على نوعينِ منَ المُلاحظةِ، يُعرفُ النوعُ الأوَّلُ منْها بالمُلاحظةِ الخارجيةِ: ((والمُلاحظةُ الخارجيةُ هي الأسبقُ في نظرِ **لوك**، "إذ أنَّ أوَّلَ مصدرٍ يزودُ عقولنا بالأفكارِ هو موضوعاتُ الحسِّ ــ فحواسُنا الواعيةُ بالموضوعاتِ الجزئيةِ المحسوسةِ، والمُدركةُ لها ــ توصلُ لعقولنا إحساساتٍ مُختلفةً متعددةً عنِ الأشياءِ تبعاً لاختلافِ وتعددِ الوسائلِ التي تؤثرُ بها هذه الأشياءُ في تلكَ الحواسِ... ولذلكَ يُمكنُنا أنْ نصلَ إلى تكوينِ أفكارِنا عنْ جميعِ الخصائصِ والصِّفاتِ المحسوسةِ مثلَ اللونِ والحرارةِ والبرودةِ ... إلخ التي نقلتَها الحواسُّ إلى عقولنا ... هذا المصدرُ الكبيرُ الذي يزودُنا بأغلبِ الأفكارِ. والذي يعتمدُ اعتماداً كُلياً على حواسنا التي تنتزعُ تلكَ الإحساساتِ وتوصلُها لعقولنا ــ وهو ما نسميهُ باسمِ الإحساسِ))41. يتميزُ هذا النَّوعُ منَ المُلاحظةِ بأسبقيتِه في الوجودِ منَ النَّوعِ الثَّانيِّ والذي سنأتي على تفصيلِه لاحقاً، ترتبطُ المُلاحظةُ الخارجيةُ بالحواسِّ التي تقومُ بنقلِ الانطباعاتِ الخارجيةِ إلى العقلِ أو الفكرِ، لهذا، تأتي الانطباعاتُ المُرتبطةُ بها مُتعددةً بتعددِ الحواسِّ التي تتعاملُ معَ العالمِ الخارجيِّ، وعندَما تنتقلُ الصُّورُ الحسِّيةُ إلى الفكرِ يقومُ الأخيرُ بإعادةِ هيكلتِها وتركيبِها منْ جديدٍ بحيثُ تعكسُ صورةَ الأشياءِ كما هي موجودةٌ في الخارجِ.

في مُقابلِ النَّوعِ الأوَّلِ منَ المُلاحظةِ يتحددُّ النَّوعُ الثَّاني، فإذا كانتِ المُلاحظةُ الخارجيةُ تعتمدُ في قيامِها على وجودِ الحواسِّ والأشياءِ الخارجيةِ فإنَّ النَّوعَ الثَّاني على النَّقيضِ منْ هذه يعتمدُ على النَّشاطِ الدَّاخليِّ للعقلِ، يقولُ **لوك** مُوضحاً هذا النَّوعِ: (("أمَّا المصدرُ الثاني الذي يزودُ عقولَنا بالأفكارِ فهو إدراكنا لعملياتِ العقلِ الدَّاخليةِ ــ تلكَ العملياتُ التي تقومُ بها النَّفسُ حينَ تفكرُ وتتأملُ في تلكَ الأفكارِ التي تكونتْ في العقلِ بواسطةِ الحواسِّ ــ فيتغذى العقلُ بأفكارٍ جديدةٍ لمْ تأتِ إلينا منَ الخارجِ مثلَ الإدراكِ الحسِّيِّ والتَّفكيرِ والشَّكِ والاعتقادِ والتَّعقلِ والمعرفةِ والإرادةِ ... إلى آخرِ مُختلفِ العملياتِ العقليةِ الأُخرى الَّتي نكونُ واعيينَ بها مُدركينَ لها ويُمكنُنا مُلاحظتُها))42. عندَما تنقلُ الحواسُّ الانطباعاتِ الخارجيةَ إلى داخلِ العقلِ أو الفكرِ يقومُ الأخيرُ بإخضاعِها للتأملِ لعقلنتِها، ممَّا ينتجُ عنْهُ مجموعةً منَ الأفكارِ الجديدةِ الَّتي لمْ يتمْ الحصولُ عليها عبرَ الحواسِّ، مثالُ ذلكَ فكرةُ الشَّكِ وفكرةُ الاعتقادِ وفكرةُ الإرادةِ وفكرةُ التَّعقلِ ... الخ.

يذهبُ **لوك** أنَّ المصدرانِ السَّابقانِ للمُلاحظةِ هُما المسؤلانِ عنْ تكوينِ وإنتاجِ الأفكارِ يقولُ مُبيناً هذا الأمرَ: ((وهذانِ المصدرانِ: الأشياءُ الخارجيةُ منْ حيثُ هي موضوعاتٌ للحسِّ ــ وعملياتُ العقلِ الدَّاخليةِ منْ حيثُ هي موضوعاتٌ للتفكيرِ .. هُما في الواقعِ الأساسُ الَّذي يُمكنُ أنْ يبدأَ به أو يتوقفُ عليه تكوينُ أيِّ فكرةٍ))43. يصلُ **لوك** إلى نتيجةٍ مُهمةٍ مفادُها: يتعذرُ على العقلِ إنتاجُ الأفكارِ في حالِ غيابِ أحدِ المصدرينِ السَّابقينِ للمُلاحظةِ، فالفكرةُ في النِّهايةِ هي نتاجٌ لتكاملِ المُلاحظةِ الخارجيةِ معَ المُلاحظةِ الدَّاخليةِ، حيثُ تقومُ الأولى منْها بنقلِ الانطباعاتِ الخارجيةِ إلى العقلِ والَّذي يُخضعُها بدورِه لعمليةِ تعقلٍ تكونُ منْ نتائجِها إمَّا إعادةُ تكوينِ وإنتاجِ الصُّورِ الخارجيةِ وإمَّا إنتاجُ أفكارٍ جديدةٍ لا سندَ لها في الواقعِ ويتمُّ كُلُّ ذلكَ بالاعتمادِ على المُخيلةِ.

أمَّا ما يتعلقُ بالآليةِ الَّتي يتمكنُ الفكرُ بها منْ إدراكِ الأشياءِ ــ في صورةِ أفكارٍ ــ فتتسمُ بالتَّعقيدِ حيثُ يتمُّ الاعتمادُ في هذه الحالةِ على وجودِ الصِّفاتِ، يقولُ **لوك** مُوضحاً ذلكَ: (("إنَّ إدراكَنا للموضوعاتِ الحسِّيةِ يتمُّ بناءً على تأثيرِ الصِّفاتِ الموجودةِ في الأشياءِ الطَّبيعيةِ في حواسِنا. وبالرَّغمِ منْ أنَّ هذه الصِّفاتِ الحسِّيةَ توجدُ في الأشياءِ الطَّبيعيةِ وهي في حالةِ ترابطٍ دائمٍ بحيثُ تكونُ مُتحدةً بعضُها معَ البعضِ بلا انفصالٍ ــ إلاَّ أنَّ الأفكارَ الَّتي تُحدثُها هذه الأشياءُ في عقولنا تصلُ إلينا بواسطةِ الحواسِّ وهي مُنفصلةٌ غيرُ مُترابطةٍ أو مُتلازمةٌ"))44. في العادةِ تتكونُ المُدركاتُ الخارجيةُ منْ مجموعةٍ منَ الصِّفاتِ الَّتي تلتصقُ وتلتحمُ بالجواهرِ المادية، وغالباً ما تكونُ مُتماسكةً فيما بينَها، إلاَّ أنَّها وعندَما تتعاملُ معَها الحواسُّ تقومُ بتفكيكِها وتجزئتِها على حسبِ وظيفةِ كُلِّ حاسَّةٍ منَ الحواسِّ الخمسِ، وعندَما تلجُ الصِّفاتُ إلى العقلِ يقومُ بإعادةِ جمعِها منْ جديدٍ بحيثُ تعكسُ صورتَها الطَّبيعيةَ، لهذا، اعتقدَ **لوك** بتعذرِ الحصولِ على المعرفةِ الخارجيةِ في حالِ تعذرِ إدراكِ الصِّفاتِ لسببٍ منَ الأسبابِ، وفي هذا السِّياقِ يُمكنُ مُلاحظةُ حجمِ الحضورِ **الأرسطيِّ** في فلسفةِ **لوك**، فقد ربطَ الأوَّلُ الحصولَ على المعرفةِ بوجودِ الحواسِّ، فقالَ قولَتَهُ المعروفةَ "مَنْ فقدَ حساً فقدَ علماً".

يعتقدُ **لوك** وجودَ نوعين مِنَ الصِّفات؛ يُطلقُ عَلَى النَّوعِ الأوَّلِ مِنْهَا اسمَ الصفاتِ الأوليةِ: (("إذا تناولنا حبَّةَ القمحِ وقسمنَاهَا قسمين سنجدُ أنَّ كُلَّ نصفٍ مِنْهَا مَا زالَ مُحتفظاً بِدرجةٍ مِنَ الصَّلابة والامتداد، وأيضاً بِشكلٍ مُعين، وإذا قُمنا بتقسيمِ كُلِّ نصفٍ إلى نصفين فسنُلحظُ استمرارَ احتفاظِ كُلِّ جُزءٍ بِهذهِ الصِّفاتِ مثلاً "الصَّلابةُ والامتدادُ والشَّكلُ" لِذلكَ فإنَّ تقسيمَ الشَّيءِ إلى أجزاءٍ لا يزيدُ "أو يُنقصُ مِنْ صفاتِه الأوليةِ الثَّابتةَ الَّتي هي ضروريةٌ ولازمةٌ لوجودِه"))[45]. يتميزُ هذا النَّوعُ مِنَ الصِّفاتِ بارتباطِه بالجواهرِ حتَّى أنَّهُ يتعذرُ الفصلُ بينَهُمَا، لأنَّ العلاقةَ بينهُمَا علاقةٌ وجوديةٌ، فعَلَى سبيلِ المثالِ، إذا أخذنَا حبَّةَ قمحٍ وقُمنا بتقسيمِهَا إلى قسمينِ أو إلى عدةِ أقسامٍ فإنَّ هذا لا يعني بالضَّرورةِ انقسامَ وتجزءَ الصِّفاتِ الأوليةِ بحيثُ تذهبُ صفةُ الطَّعمِ معَ قسمٍ مِنَ الأقسامِ، وصفةُ اللونِ معَ قسمٍ آخرٍ، وهكذا الأمرُ معَ باقي الصِّفاتِ؛ بلْ إنَّ الأمرَ عَلَى خلافِ ذلكَ، ففي كُلِّ جزءٍ مِنْ أجزاءِ حبَّةِ القمحِ تحضرُ مجموعُ الصِّفاتِ الأوليةِ بحيثُ يُشكلُ كُلُّ جزءٍ بنيةً مُتكاملةً لوحدِه.

توجدُ إلى جانبِ الصِّفاتِ الأوليةِ الصِّفاتُ الثَّانويةُ، وهي عَلَى عكسِ الأولى لا تدخلُ في علاقةٍ وجوديةٍ معَ الجوهرِ الماديِّ، يقولُ المُفكرُ العربيُّ **مُحمد عبدالمُعطي** مُوضحاً ذلكَ: ((وهي عكسُ الصِّفاتِ الأوليةِ فهي ليستْ أساسيةً أو ضروريةً لِبقاءِ الشَّيءِ، كمَا أنَّهَا لا تكمُنُ فيه أو تُلازمُهُ، لكنَّهَا مُجردُ قوى تؤثرُ فينا فتنتجُ إحساساتٍ مُتباينةً ... وجودُ المقعدِ مثلاً لا يستلزمُ وجودَ لونٍ مَا كالبُنيِ أو الأصفرِ أو الأبيضِ فاللونُ صفةٌ ثانويةٌ يُمكنُ أنْ يوجدَ المقعدُ بدونِهَا، ولكنْ لا يُمكنُ أنْ يوجدَ بدونِ قاعدتِه، أو أرجُلِه الأربعةَ، فالشَّكلُ هنا صفةٌ أوليةٌ أساسيةٌ مُلازمةٌ لَهُ بحيثُ لا يُمكنُ تصورُهُ بدونِهَا))[46]. إذا كانتِ الصِّفاتُ الأوليةُ واجبةُ الوجودِ لاستمرارِ وبقاءِ الجوهرِ الماديِّ فإنَّ النَّوعَ الثَّانيَّ مِنَ الصِّفاتِ يفتقدُ لِهذهِ الضَّرورةِ؛ بمعنى أنَّ الشَّيءَ أو الجوهرَ الماديَّ يُمكنُهُ الاستمراريةَ في الوجودِ في حالِ انعدامِ وجودِ مثلِ هذه الصِّفاتِ، فعَلَى سبيلِ المثالِ، يتكونُ الكُرسيُّ مِنْ مجموعةٍ مِنَ الصِّفاتِ الأوليةِ كقيامِه عَلَى قاعدةٍ وأربعةِ أرجُلٍ لا يُمكنُ تصورُ وجودِه بمعزلٍ عَنْهَا، إلى جانبِ قيامِه عَلَى عددٍ مِنَ الصِّفاتِ الثَّانويةِ الَّتي يُمكنُ تصورُ وجودِه حتَّى في حالِ غيابِهَا؛ مثلُ صفةِ اللونِ الَّتي يُمكنُ أنْ تتغيرَ دونَ أنْ يترتبَ عَلَيها تغيرٌ في بُنيتِه: ((فمثلاً صفاتُ البياضِ والبرودةِ والصَّلابةِ في الثَّلجِ. كُلُّهَا صفاتٌ مُرتبطةٌ معَ بعضِهَا في شيءٍ واحدٍ هو موضوعُ الحسِّ ــ إذ أنَّ قطعةَ الثَّلجِ باردةٌ في نفسِ الوقتِ الَّذي هي فيه بيضاءُ وعَلَى درجةٍ مُعينةٍ مِنَ الصَّلابةِ. وبالرَّغمِ مِنْ أنَّ هذهِ الصِّفاتِ مُرتبطةٌ ومُتلازمةٌ في الوجودِ الموضوعيِّ الخارجيِّ إلاَّ أنَّ الانطباعاتِ الحسِّيةَ الَّتي ترِدُ إلى عقلِ الإنسانِ عَنْ طريقِ حواسِه ــ تصلُ إليه وهي مُنفصلةٌ غيرُ مُتلازمةٍ ــ كُلُّ إحساسٍ مِنْهَا يصلُ مُستقلاً ويؤدي إلى تكوينِ صورةٍ ذهنيةٍ أو انطباعٍ عقليٍّ مُنفصلٍ ومُستقلٍ عَنِ الإحساسِ أو الانطباعِ الحسيِّ الآخرِ وهذه الانطباعاتُ الحسِّيةُ المُنفصلةُ حينَ تنطبعُ عَلَى الذِّهنِ فإنَّهُ يُكونُ عَنْهَا أفكاراً أو صوراً ذهنيةً واضحةً مُتميزةً"))[47]. عِنْدَمَا تنقلُ الحواسُّ الصِّفاتِ ــ الانطباعاتُ الخارجيةُ ــ فإنَّها تنقلُهَا مُفككةً غيرَ مُترابطةٍ مِمَّا يُولدُ الاعتقادَ عِنْدَ المُدركِ أنَّها غيرُ مُتلازمةٍ في الوجودِ إلاَّ أنَّهَا في الحقيقةِ غيرُ ذلكَ، فالفصلُ والتَّمييزُ الَّذي تقومُ بِه الحواسُّ هو فصلٌ إجرائيٌّ سُرعانَ مَا يتلاشى بعدَ أنْ يقومَ العقلُ بإعادةِ تركيبِ الصِّفاتِ مِنْ جديدٍ في صورةِ أفكارٍ ذهنيةٍ تتسمُ بالبساطةِ.

قدمَ المُفكرُ **تاتاركيفتش** تفسيراً لَخصَ فيه الفرقَ بينَ الصِّفاتِ الأوليةِ والصِّفاتِ الثَّانويةِ يقولُ فيه: ((قامَ **لوك** بتصنيفِ الخواصِ إلى أوليةٍ وثانويةٍ عَلَى أساسٍ ثنائيٍ. الخواصُ الأوليةُ تتميزُ بِهَا الأشياءُ الثَّابتةُ ولا يُمكنُ عزلَهَا عَنْ تصوراتِنَا. ولكنَّ الأمرَ يختلفُ عِنْدَ الخواصِ الثَّانويةِ، ويكفي إطفاءُ النُّورِ حتَّى تفقدَ الأشياءُ صفةَ اللونِ. الأمرُ الثَّاني هو أنَّ الخواصَ الأوليةَ خاضعةٌ لِمُلاحظةِ العديدِ مِنَ الخواصِ والَّتي تتفاعلُ معَ بعضِهَا مؤديةً إلى شهادةٍ موضوعيةٍ لِهذهِ الخواصِ، بينَمَا الخواصُ الثَّانويةُ خاضعةٌ لِمُلاحظةٍ حاسةٍ واحدةٍ فقط))[48]. الفرقُ بينَ الصِّفاتِ الأوليةِ والصِّفاتِ الثَّانويةِ هو أنَّ الصِّفاتِ الأوليةَ لا يُمكنُ عزلَهَا عَنِ التَّصوراتِ الَّتي نكونُهَا عَنِ الأشياءِ، في المُقابلِ، فإنَّ الصِّفاتِ الثَّانويةَ لا تملكُ هذا الوجودَ؛ بمعنى أنَّهُ يُمكنُ أنْ تكونَ لَنَا تصوراتٍ بمعزلٍ عَنْهَا.

لا يتوقفُ نشاطُ العقلِ ــ **لوك** ــ عِنْدَ إنتاجِ الأفكارِ البسيطةِ بلْ بِمقدورِه إنتاجَ أفكارٍ مُركبةٍ: ((إذا أمكنَ للعقلِ أنْ يحصلَ عَلَى عددٍ كبيرٍ مِنْهَا أو يوحدَ أو يحكمَ ... ويخرجُ بذلكَ بأفكارٍ أُخرى جديدةٍ نسميها باسمِ الأفكارِ المُركبةِ. وعَلَى ذلكَ فالأفكارُ المُركبةُ تعتمدُ اعتماداً مُباشراً عَلَى الأفكارِ البسيطةِ ــ وهذه بدورِهَا تعتمدُ عَلَى الحواسِّ .. فلو أنَّ حواسَ الإنسانِ كانتْ أربعاً فقط بدلاً مِنْ خمسٍ ــ لكانَ هذا معناهُ أنَّ أفكارَنَا ستكونُ أقلّ عددٍ مِمَّا هي عَلَيه الآنَ، وذلكَ نتيجةً لاستبعادِنَا الأفكارَ الَّتي كانَ يُمكنُ أنْ تتكونَ تبعاً لإحساساتِ هذه الحاسَّةِ الَّتي استبعدنَاها))[49]. رُغمَ تعددِ الحواسِّ إلاَّ أنَّها وعَلَى تعددِهَا تُعدُّ قليلةً بالمُقارنةِ مَعَ كمِّ الأفكارِ الَّتي يتمكنُ العقلُ أو الفكرُ مِنْ إنتاجِهَا؛ مِمَّا يعني أنَّ مصدرَهَا ليسَ الحواسُّ بلْ هي مِنْ إنتاجِ مصدرٍ آخرٍ، وهُنا يأتي دورُ الآلياتِ الأُخرى للفكرِ، تنقلُ

الحواسُّ صفاتٍ أوليةً تنتُجُ عَنْهَا أفكاراً بسيطةً، يقومُ العقلُ في كثيرٍ منَ الأحيانِ بإعادةِ استثمارِ الأفكارِ البسيطةِ عَلَى نُدرتِهَا لإنتاجِ أفكارٍ أُخرى تُعرفُ بالأفكارِ المُركبةِ الَّتي هي عبارةٌ عَنْ حاصلِ جمعِ فكرتينِ بسيطتينِ أو أكثر، مثالُ ذلكَ فكرةُ "**الحصانِ المُجنحِ**" الَّتي هي عبارةٌ عَنْ حاصلِ جمعِ فكرتينِ بسيطتينِ "**فكرةُ حصانٍ** + **فكرةُ الأجنحةِ**" فكانَ حاصلُ الجمعِ "**حصانٌ مُجنحٌ**".

نتجَ عَنْ تصورِ **لوك** لطبيعةِ الفكرِ وآليةِ إنتاجِهِ للأفكارِ إنكارُهُ لفطريةِ الأفكارِ، الَّتي سبقَ وقالَ بِهَا **ديكارت**، الَّذي اعتقدَ أنَّ الإنسانَ يولدُ وهو مزودٌ بمجموعةٍ منَ الأفكارِ المُسبقةِ؛ كفكرةِ الكائنِ اللامُتناهي، في حين ذهبَ **لوك** إلى إنكارِ هذا القولِ: ((إنَهَا (أي الأفكار) ليستْ مطبوعةً عَلَى العقلِ بطبيعتِهَا ــ لأنَّهَا ليستْ معروفةً بالنِّسبةِ للأطفالِ والبُلهاءِ وغيرهم. أوَّلاً: لأنَّهُ منَ الواضحِ أنَّ جميعَ الأطفالِ والبُلهاءِ ليسَ لهُمْ أدنى فهمٍ أو فكرةٍ عَنْهَا. وهذا النَّقصُ كافٍ لإبطالِ تلكَ المُوافقةِ العامةِ، الَّتي يجبُ أنْ تكونَ مُلازمةً بالضَّرورةِ لكُلِّ الحقائقِ الفطريةِ: ويبدو لي أنَّهُ أقربُ إلى التَّناقضِ أنْ نقولَ بأنَّ هُناكَ حقائقاً مطبوعةً عَلَى الرُّوحِ ــ وهيَ لا تُدركُهَا. لأنَّ الطَّبعَ إنْ كانَ يعني شيئاً ــ فلنْ يعني أكثرَ منْ جعلِ حقائقٍ مُعينةٍ ــ شيئاً يُمكنُ إدراكُهُ. لأنَّهُ يبدو لي أمراً منَ الصُّعوبةِ فهمُهُ ــ أنْ نطبعَ شيئاً عَلَى العقلِ بدونِ إدراكِ العقلِ لَهُ))[50]. حاولَ **لوك** دحضَ فكرةِ وجودِ الأفكارِ الفطريةِ بالاعتمادِ عَلَى أدلةٍ منطقيةٍ عقلانيةٍ، فهو يعتقدُ أنَّ هذه الأفكارَ لو كانت موجودةً حقّاً لكانَ بمقدورِ الأطفالِ والبُلهاءِ إدراكُها عَلَى السَّواءِ، غيرَ أنَّ الأمرَ خلافٌ لذلكَ، فهؤلاءِ لا يملكونَ أدنى فكرةٍ عَنْهَا، كمَا أنَّ الرُّوحَ الَّتي يُزعمُ أنَّ الحقائقَ الفطريةَ مطبوعةٌ عَلَيها تعجزُ هي الأُخرى عَنْ إدراكِهَا، فلو كانتِ هذه الحقائقُ موجودةً بالفعلِ لكانتِ الرُّوحُ أولى بإدراكِها؛ ممَّا يُدلِّلُ عَلَى تناقضِ القولِ بوجودِها.

مَعَ رفضِ **لوك** للقولِ بوجودِ الأفكارِ الفطريةِ إلاَّ أنَّهُ يُقرُّ بصعوبةِ إقناعِ الآخرينَ بفكرةِ عدمِ وجودِهَا: ((إنَّ هُناكَ اعتقاداً قوياً ثابتاً عِنْدَ بعضِ النَّاسِ يقولُ بوجودِ المبادئِ الفطريةِ أو الأفكارِ الأوليةِ كمَا لو كانتْ محفورةً فيهِ أو مطبوعةً عَلَيهِ. تلقتها الرُّوحُ منْذُ وجودِهَا القديمِ وجاءتْ بِهَا إلى هذا العالمِ))[51]. يُمكنُ تفسيرُ أو تشخيصُ السَّببِ الكائنِ وراءَ تمسكِ كثيرٍ منَ النَّاسِ بوجودِ الأفكارِ الفطريةِ بالاعتمادِ عَلَى مبدأِ العادةِ، فهم تعودوا عَلَى سماعِ القولِ بوجودِهَا، كما أنَّ الاعتقادَ بوجودِها جاءَ دائماً مُقترناً بفكرةِ الكائنِ الماورائيِّ، فتصبحُ الفكرةُ مُرتبطةً بالإيمانِ، لِهذا، يتعذرُ عَلَى كثيرٍ منَ النَّاسِ رفضُهَا لاعتقادِهم أنَّ الرَّفضَ يخرجُ بِهم عَنْ دائرةِ الإيمانِ ليلجَ بِهم دائرةَ الكُفرِ.

في المُقابلِ، حاولَ **لوك** التَّدليلَ عَلَى بطلانِ القولِ بوجودِ الأفكارِ الفطريةِ يقولُ في معرضِ ذلكَ: ((يجزمُ بعضُ النَّاسِ بأنَّ في الذِّهنِ مبادئَ فطريةً مُعينةً، وعدداً منَ المفاهيمِ والحروفِ قد طُبعتْ، إنْ صحَّ التَّعبيرُ، عَلَى عقلِ الإنسانِ منْذُ أنْ وجدَ وجاءَ بِهَا معَهُ إلى العالمِ. ويكفي للتدليلِ عَلَى بُطلانِ هذا الزَّعمِ بأنْ نُبينَ أنَّ النَّاسَ يستطيعونَ باستخدامِ ملكاتِهم الطَّبيعيةَ فقط أنْ يحصلوا عَلَى المعرفةِ الَّتي بحوزتِهم دونَ الالتجاءِ إلى الانطباعاتِ الفطريةِ، وأنْ يتوصلوا إلى اليقينِ بدونِ مثلِ هذه المفاهيمِ أو المبادئِ))52. يذهبُ **لوك** عِنْدَ إنكارِهِ ورفضِهِ لوجودِ الأفكارِ الفطريةِ إلى القولِ: إنَّ الإنسانَ لا يُعولُ عَلَى وجودِ مثلِ هذه الأفكارِ للحصولِ عَلَى المعرفةِ، فبمقدُورِهِ الحصولُ عَلَى المعرفةِ بالاعتمادِ عَلَى ملكاتِهِ الطَّبيعيةَ والَّتي منْ أهمِهَا الحواسُّ الخمسُ؛ بلْ بمقدورِ النَّاسِ الحصولُ عَلَى اليقينِ المعرفيِّ دونَ الاعتمادِ عَلَى الانطباعاتِ الفطريةِ.

يعولُ القائلونَ بالأفكارِ الفطريةِ في التَّدليلِ عَلَى وجودِهَا عَلَى وجودِ مجموعةٍ منَ المبادئِ المنطقيةِ يعتمدُ عَلَيها العقلُ الإنسانيُّ في الحصولِ عَلَى المعرفةِ: ((يُقسمُ **لوك** مَا يُدعى بالمبادئِ الفطريةِ الموجودةِ في العقلِ بالفعلِ إلى نوعينِ: نظريةٌ "تأمليةٌ" و"عمليةٌ". فأمَّا المبادئُ النَّظريةُ فتشتملُ القضايا المنطقيةَ البينةَ بذاتِهَا مثلَ قانونِ الذَّاتيةِ "كُلُّ مَا هو هو" وقانونِ التَّناقضِ" منَ المُحالِ أنْ يكونَ الشَّيءُ ذاتُهُ وأنْ لا يكونَ" الَّتي يعتقدُ الفلاسفةُ العقليونَ بأنَّهَا فطريةٌ بحُجةِ أنَّهَا موضعُ إجماعِ النَّاسِ كُلِّهُم. وردَّ **لوك** عَلَى هذه الحُجةِ يقومُ في أنَّ إجماعَ النَّاسِ عَلَى صدقِ هذه المبادئِ لا يُشكلُ دليلاً عَلَى كونِهَا فطريةً إلاّ إذا تبينَ أنَّهُ منَ المُحالِ أنْ يحصلَ عَلَيها الإنسانُ بطريقٍ آخرٍ. ومنْ ناحيةٍ أُخرى لم تحظَ هذه المبادئُ ــ فيمَا أشارَ **لوك** ــ بإجماعِ النَّاسِ لأنَّ الأطفالَ لا يفقهونَهَا مُطلقاً. هذا دليلٌ عَلَى أنَّهَا ليستْ فطريةً. ولو كانتْ فطريةً لأدركَهَا النَّاسُ كُلُّهُم بدونِ استثناءٍ))[53].

يستمرُ **لوك** في دحضِ فكرةِ بوجودِ الأفكارِ الفطريةِ، برفضِ الدَّليلِ الَّذي ساقَهُ أنصارُ هذا الطَّرحِ، فالمبادئُ العقليةُ لا تُدلِّلُ بحسبِ زعمِهِ عَلَى وجودِها عَلَى اعتبارِ أنَّ إجماعَ النَّاسِ لا يكفي لوحدِهِ دليلاً عَلَى وجودِهَا، إلى جانبِ ذلكَ، لا تحظى هذه المبادئُ بالإجماعِ حولَهَا، فَعَلَى سبيلِ المثالِ، لا يُقرُّ الأطفالُ بوجودِهَا، كمَا أنَّ أنصارَهَا هم أيضاً بحاجةٍ إلى دليلٍ على أنَّها لم يتمْ الحصولُ عَلَيها بطريقةٍ مُكتسبةٍ.

إلى جانبِ دليلِ المبادئِ العقليةِ يسوقُ أنصارُ الأفكارِ الفطريةِ دليلاً آخراً يعتمدُ عَلَى المبادئِ العمليةِ: ((وأمَّا المبادئُ العمليةُ فتشتملُ القواعدَ الأخلاقيةَ والمُعتقداتِ الدِّينيةَ، وهي ليستْ موضعَ إجماعِ النَّاسِ. فلا توجدُ مبادئُ أخلاقيةٌ عامةٌ كُليةٌ بينةٌ

بذاتها، لأنَّ المقاييسَ الأخلاقيةَ ومفاهيمَ الحقِّ والباطلِ أمورٌ نسبيةٌ وتختلفُ باختلافِ المكانِ والزَّمانِ وبتباينِ الظُّروفِ الاجتماعيةِ، وينبغي أنْ يكونَ هُناكَ مَا يُبررُهَا))[54]. يقومُ هذا الدَّليلُ عَلَى فكرةِ وجودِ مبادئَ أخلاقيةٍ عامةٍ يعملُ بهَا النَّاسُ في سلوكياتِهم العمليةِ، ممَّا يُدلِّلُ حسبَ زعمِهم عَلَى فطريتِهَا، غيرَ أنَّ **لوك** يرفضُ هذا القولَ بحُجةِ افتقادِهَا لعنصرِ الإجماعِ، فلو كانتْ تحظى فعلاً بالإجماعِ لكانتْ حاضرةً في كُلِّ المُجتمعاتِ الإنسانيةِ وعلَى اختلافِ مُعتقداتِهَا وثقافاتِهَا وهو مَا لا يُمكنُ ملاحظتُهُ بلْ عَلَى العكسِ منْ ذلكَ يُلاحظُ أختلافُ وتباينُ المعاييرِ العمليةِ باختلافِ الزَّمانِ والمكانِ: ((وكذلكَ الحالُ معَ المُعتقداتِ الدِّينيةِ. فإنَّ فكرةَ **الله** ــ وهي الفكرةُ الرَّئيسيةُ في كُلِّ الأديانِ ــ ليستْ فطريةً، لأنَّهَا منْ ناحيةٍ ليستْ عامةً، إذ أنَّ بعضَ الأقوامِ لا يملكونَ فكرةً عنِ **الله** ــ دعْ عنكَ المُلحدينَ الذَّينَ يُنكرونَ وجودَهُ، ولأنَّهَا منْ ناحيةٍ أخرى تختلفُ باختلافِ الشُّعوبِ))[55].

حاولَ المُدافعونَ عنْ مبدأِ الأفكارِ الفطريةِ ردَّ الاعتراضاتِ السَّابقةَ بالقولِ أنَّ العقلَ الإنسانيَّ يعجزُ في بعضِ الأحيانِ عنْ إدراكِ وجودِهَا لافتقادِهِ للنُضجِ، لذا، فإنَّ أمرَ إدراكِهَا مُتوقفٌ عَلَى درجةِ انضجِه: ((إذا كانتْ بعضُ الحقائقِ مطبوعةً في العقلِ دونَ أنْ تُدركَ فذلكَ يعني أنَّهُ لا يبقى أيُّ اختلافٍ بينَ الحقائقِ التي يستطيعُ العقلُ إدراكَهَا منْ حيثُ أصلِها: فينبغي أنْ تكونَ كُلَّهَا فطريةً أو كُلَّهَا مُكتسبةً، وعبثاً يُحاولُ المرءُ التَّفريقَ بينَهَا. وعلَيهِ فلا يُمكنُ أنْ تُستمدَ المعرفةُ منْ أفكارٍ مطبوعةٍ في العقلِ لأنَّهُ لا وجودَ لمثلِ هذه الأفكارِ))[56]. انسجاماً معَ المبدأِ العامِ لفلسفتِه يرفضُ **لوك** هذا التَّبريرَ بحُجةِ أنَّ فكرةَ النُّضجِ لا يُمكنُهَا لوحدِها التَّدليلَ عَلَى وجودِ الأفكارِ الفطريةِ، لهذا، يعجزُ هذا التَّبريرُ عنِ التَّمييزِ بينَهَا وبينَ الأفكارِ المُكتسبةِ، فلا يكونُ بمقدورِ الإنسانِ الحكمُ عَلَى أفكارِه أكانتْ مُكتسبةً أم فطريةً.

بعدَ رسمِ موقفِه منَ الأفكارِ الفطريةِ صارَ بمقدورِ **لوك** تحديدُ موقفِه منْ طبيعةِ المعرفةِ، يقولُ في هذا السِّياقِ: ((المعرفةُ إدراكٌ لمَا بينَ أيِّ فكرتينِ منْ اتفاقٍ أو اختلافٍ. ولذا فالمعرفةُ لا تبدو لي شيئاً أكثرَ منْ إدراكِ الارتباطِ والاتفاقِ ــ أو الاختلافِ والتَّنافرِ بينَ أفكارِنا، وهي تقومُ عَلَى هذا فقط))[57]. يذهبُ **لوك** إلى أنَّ المعرفةَ هي إدراكٌ لجوانبِ الاتفاقِ أو الاختلافِ بينَ الأفكارِ، أي أنَّ المعرفةَ عنْدَه تقومُ على إدراكِ عناصرِ التَّميزِ في الأشياءِ المُدركةِ، لهذا، لنْ يكونَ هناكَ أفضلَ منَ الاتفاقِ والاختلافِ لإدراكِ التَّميزِ: ((وحيثُ يوجدُ هذا الإدراكُ، توجدُ المعرفةُ ــ أمَّا إذا لم يوجدْ هذا الإدراكُ، فإنَّنا نُقصرُ عنْ بلوغِ المعرفةِ دائماً بالرُّغمِ منْ أنَّنا يُمكنُنا أنْ نتخيلَ أو نظنَ أو نعتقدَ))[58]. ينتهي **لوك** إلى أنَّهُ لا يُمكنُ الحصولُ على المعرفةِ بعيداً أو بمعزلٍ عنْ هذا المبدأِ، معَ العلمِ أنَّهُ يُخرجُ كُلاً منَ الظَّنِ والتَّخيلِ عنْ دائرةِ إنتاجِ المعرفةِ.

حاولَ القيلسوفُ الوضعيُّ **هانز ريشنباخ** Hans Reichenbach[36] أنْ يُقدمَ تلخيصاً لفلسفةِ **لوك** في سياقِ رسمِه لطبيعةِ العلاقةِ بينَهُ وبينَ الفلسفةِ الوضعيةِ المنطقيةِ يقولُ: ((يقولُ **جون لوك** إنَّ الذِّهنَ يبدأُ وكأنَّهُ صفحةٌ بيضاء، والتَّجربةُ هي الَّتي تُسطِّرُ هذه الصَّفحةَ مَا يكتبُ فيهَا. ومعَ ذلكَ فهُناكَ نوعانِ منَ الإدراكِ الحسيِّ: إدراكُ الموضوعاتِ الخارجيةِ، وإدراكُ الموضوعاتِ الدَّاخليةِ، فالنَّوعُ الأخيرُ منَ الموضوعاتِ يُعطى لنَا في الحوادثِ النَّفسيةِ، كالتَّفكيرِ والاعتقادِ، والشُّعورِ بالألمِ، أو الإحساسِ باللونِ، وهي حوادثٌ نُلاحظُهَا بالحسِّ الباطنِ))[59]. مَا يهمُ في هذا النَّصِ التَّأكيدُ عَلَى أنَّ العقلَ الإنسانيَّ يولدُ وهو صفحةٌ بيضاءٌ، يتلقى المعرفةَ منَ الحواسِّ أو مَا يُسمَّى بالإدراكِ وهو نوعانِ: إدراكٌ خارجيٌّ يقومُ عَلَى الحواسِّ الخمسِ، وإدراكٌ داخليٌّ يعتمدُ عَلَى طريقةِ استثمارِ مَا ينقلُهُ الإدراكُ الخارجيُّ، وهو مَا يتضحُ منْ مجموعِ الفعالياتِ الذِّهنيةِ للإنسانِ والَّتي يأتي في مُقدمِهَا التَّفكيرُ والاعتقادُ.

ممَّا سبق، يُمكنُ الخلاصةُ إلى أنَّ نظريةَ الفكرِ عنْدَ **لوك** تقومُ وتعتمدُ عَلَى نقطةٍ أساسيةٍ تتمحورُ حولَ رفضِه لفكرةِ وجودِ الأفكارِ الفطريةِ، فالعقلُ يولدُ أقربَ مَا يكونُ للصفحةِ البيضاءِ، تقومُ التَّجربةُ بالخطِ عَلَيهِ عبرَ الانطباعاتِ الخارجيةِ الَّتي تلجُ إليهِ عبرَ الحواسِّ الخمسِ، فيقومُ بإعادةِ تركيبِهَا بحيثُ تعكسُ صورةَ الأشياءِ كمَا هي موجودةٌ بالفعلِ، وفي أحيانٍ أُخرى يستخدمُ العقلُ الانطباعاتِ لإنتاجِ أفكارٍ جديدةٍ؛ ممَّا يعني أنَّ للفكرِ دوراً إيجابياً أكثرَ منْهُ سلبياً.

جاء تصورُ **لوك** للمعرفةِ أمتداداً لموقفِه من طبيعةِ اللغةِ، فبما أنَّ الأخيرةَ ذاتُ طابعٍ حسيٍّ ستكونُ نظريةُ الفكرِ حسيةً بالضَّرورةِ، حيثُ يتعذرُ على الفكرِ القيامَ بنشاطِه التأمليِّ بمعزلٍ عن اللغةِ. لقد أدركَ **لوك** ضرورةَ رسمِ موقفِه من طبيعةِ اللغةِ قبلَ الانخراطِ في رسمِ طبيعةِ الفكرِ ونوعِ المعرفةِ التي سيُنتجها، لهذا ظلت نظريةُ الفكرِ عنده تابعةً لموقفِه منَ اللغةِ.

تحكمَ موقفُ **لوك** منَ اللغةِ وطبيعتِها بموقفِه من عددٍ منَ القضايا الفكريةِ والتي من أهمها قضيةُ فطريةِ الأفكارِ، ففي هذا السياقِ ذهبَ عددٌ من المفكرين إلى القولِ بأنَّ العقلَ يحتوي على مجموعةٍ من الفكارِ الفطريةِ التي يولدُ وهو مزودٌ بها، في المقابلِ، رفضَ **لوك** القولَ بوجودِها مُبرراً رفضَه بالاستنادِ على موقفِه منْ طبيعةِ اللغةِ، والتي أقرَّ بالطَّابعِ الحسيِّ لدلالتِها.

تأسيساً عَلَى مَا سبق، يُمكنُ الخُلاصةُ إلى ما يلي:

أوّلاً: أنَّ فلسفةَ **لوك** كانتْ امتداداً أصيلاً لِروحِ الفلسفةِ الغربيةِ الحديثةِ، والَّتي كانتْ فلسفةُ **ديكارت** نقطةَ انطلاقٍ لهَا. هدفتْ هذه الفلسفةَ إلى القطيعةِ مَعَ الفلسفةِ المدرسيةِ الوسيطةِ، ولإنجازِ مطلبِ التّجاوزِ مَعَ الإرثِ الوسطويِّ كانَ عَلَى **لوك** إعادةِ رسمِ وتحديدِ طبيعةِ وحدودِ النَّشاطِ الفلسفيِّ، فبدلَ الانخراطِ في مُعالجةِ قضايا الميتافيزيقةِ قَصَرَ دورَ الفلسفةِ عَلَى مُعالجةِ قضايا تتعلقُ بمجالِ المعرفةِ، فقد أدركَ أنَّ انخراطَ الفكرِ في دراسةِ وبحثِ الميتافيزيقا لنْ يُمكنَهُ مِنْ حلِّ مُشكلاتِهَا فهي في النِّهايةِ تتجاوزُ نطاقَ قُدراتِه.

ثانياً: حَصَرُ **لوك** النَّشاطِ الفلسفيِّ في بحثِ قضايا المعرفةِ ألزمَهُ قبلَ ذلكَ ضرورةَ الانفتاحِ على مجموعةٍ مِنَ القضايا والإشكالياتِ المُتداخلةِ مَعَهَا ومِنْ ذلكَ إشكاليةُ اللغةِ، ففي هذا الجانبِ قدمَ مُقارباتٍ قطعتْ مَعَ المُقاربةِ الوسطويةِ، فعَلَى سبيلِ المثالِ، رفَضَ التَّصورَ **الثِّيولوجيِّ** ــ الدِّيني ــ لِكيفيةِ ومصدرِ نشأةِ اللغةِ، في المُقابلِ، ذَهَبَ إلى تبني الصِّيغةِ الاصطلاحيةِ، كما قدمَ تصوراً جديداً لِطبيعةِ اللغةِ رسمَ الإطارَ العامَ لِفلسفتِه التَّجريبيةِ، لِهذا، كانتِ اللغةُ عِنْدَهُ حسيةَ الطَّابعِ؛ ممَّا يعني أنَّ علاقتَهَا بالفكرِ والمعرفةِ علاقةَ انسجامٍ وتطابقٍ.

ثالثاً: يُعرفُ لوك اللغة على أنَّها مجموعةٌ مِنَ الرموزِ التي تستخدمُ للتعبيرِ عن الأفكارِ ذات محتوى الواقعي، كما أن اللغةَ تمكنُ الفكرَ من تذكرها واستعادتها بعد غيابِ الواقعِ.

رابعاً: لم يقتصرْ تأثيرُ **لوك** عَلَى الفلسفةِ الحديثةِ بلْ تجاوزَهُ لِيلحقَ الفلسفةَ المُعاصرةَ، خاصةً تلكَ الَّتي تتبنى النَّزعةَ التَّجريبيةَ الحسِّيةَ كالفلسفةِ الوضعيةِ والتَّحليليةِ، وهما فلسفتانِ لغويتانِ بإمتياز.

المراجع

[1]- فيلسوفٌ تجريبيٌ إنجليزيٌ، ولِدَ في 29 أغسطس 1632، في رنجنتون، وتوفي في 28 أكتوبر سنةَ 1704، يُعدُّ مِنْ أهمِّ روادِ الفلسفةِ الحديثةِ.

[2]- يعتقد أنصار هذا الاتجاه أن اللغة تنشأ عن الاجتماع الإنساني، وليس كما يعتقد أنصار الاتجاه الوقفي الذي يرى أن مصدر اللغة ما ورائي.

[3]- إسلام، عزمي، **جون لوك**، ط لا، در الثَّقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر. ص. 127.

[4]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[5]- محمد، علي عبد المُعطي، وراوية عبدالمنعم عباس، **رواد الفلسفة الحديثة**، ط لا، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، 2000. ص. 342.

[6]- إسلام، **جون لوك**. ص. 130.

[7]- محمد، **رواد الفلسفة الحديثة**. ص. 358.

[8]- إسلام، **جون لوك**. ص. 128.

[9]- محمد، **رواد الفلسفة الحديثة**. ص. 342.

[10]- إسلام، **جون لوك**. ص. 142 ــ 143.

[11]- **دليل اكسفورد الفلسفي، الجزء الثَّاني**، تحرير: تد هوندرتش، ترجمة: نجيب الحصادي، ط1، المكتب الوطني للبحث والتَّطوير، طرابلس، ليبيا، 2005. ص. 841 ــ 842.

[12]- بدوي، عبدالرحمن، **موسوعة الفلسفة، الجزء الثَّاني**، ط1، المُؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984. ص. 376.

[13]- إسلام، **جون لوك**. ص. 235.

[14]- بدوي، **موسوعة الفلسفة، الجزء الثَّاني**. المُؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984. ص. 376.

[15]- المرجع السابق. ص. 376.

[16]- إسلام، **جون لوك**. ص. 235.

[17]- المرجع السابق. ص. 133.

[18]- **مُوجز تاريخ الفلسفة**، تأليف جماعة من الأساتذة السُّوفيات، ترجمة: توفيق سلوم، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1989. ص. 187.

[19]- إسلام، **جون لوك**. ص. 133.

[20]- المرجع السابق. ص. 134.

[21]- المرجع السابق. ص. 140.

[22]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[23]- برتراند رسل: فيلسوف أنجليزي ولد سنة 1872 م له العديد من الكتب منها: المنطق والمعرفة، وكتاب: البرنكيبيا، وهو كتاب مشترك مع الفيلسوف المعروف وايتهد.

[24]- هو: لودفيج جوزيف جوهان فتجنشتين، نمساوي المولد 1889 ــ 1951، له العديد من الكتب من أهمها: رسالة منطقية فلسفية.

[25]- بنروبي، ج، **مصادر وتيارات الفلسفة المُعاصرة في فرنسا، الجزء الأوَّل**، ترجمة: عبدالرحمن بدوي، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1980. ص.7.

[26]- **دليل اكسفورد الفلسفي، الجزء الثَّاني**. ص. 841.

[27]- تاتاركيفتش فيلسوف غربي معاصر من أصل بولندي، استاذ في جامعة وراسو، له العديد من الكتب الفلسفية، من أهمها موسوعة فلسفية عن تاريخ الفلسفة.

[28]- تاتاركيفتش، فوادسواف **الفلسفة الحديثة، من عصر النهضة وحتى التنوير الإنجليزي ــ الفرنسي**. ترجمة: محمد عثمان مكي العجيل، دار كنوز للنشر والتوزيع، ط ت لا، القاهرة، مصر. ص. 186.

[29]- إسلام، **جون لوك**. ص. 5.

[30]- متى، كريم، **الفلسفة الحديثة عرض نقدي**، ط لا، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، 1974. ص. 152.

[31]- المرجع السابق. ص. 155.

[32]- إسلام، **جون لوك**. ص. 5.

[33]- المرجع السابق. ص. 20 ــ 21.

[34]- المرجع السابق. ص. 21.

[35]- **دليل اكسفورد الفلسفي، الجزء الثَّاني**. ص. 841.

[36]- متى، **الفلسفة الحديثة عرض نقدي**. ص. 156.

[37]- إسلام، **جون لوك**. ص. 48.

[38]- محمد، **رواد الفلسفة الحديثة**. ص. 355.

[39]- إسلام، **جون لوك**. ص. 50.

[40]- بالروين، مُحمد مُحمد، **الفلسفة الحديثة، قضايا وآراء**، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1997. ص. 67.

[41]- إسلام، **جون لوك**. ص. 52 ــ 53.

[42]- المرجع السابق. ص. 53.

[43]- المرجع السابق. ص، الصفحة نفسها.

[44]- المرجع السابق. ص. 56.

[45]- محمد، **رواد الفلسفة الحديثة**. ص. 362.

[46]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[47]- إسلام، **جون لوك**. ص. 56 ــ 57.

[48]- تاتاركيفتش، **الفلسفة الحديثة، من عصر النهضة وحتى التنوير الإنجليزي ــ الفرنسي**. ص. 190.

[49]- إسلام، **جون لوك**. ص. 57.

[50]- المرجع السابق. ص. 225.

[51]- المرجع السابق. ص. 37.

[52]- متى، **الفلسفة الحديثة عرض نقدي**. ص. 153.

[53]- المرجع السابق. ص. 153 ــ 154.

[54]- المرجع السابق. ص. 154.

[55]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[56]- المرجع السابق. ص. 154 ــ 155.

[57]- إسلام، **جون لوك**. ص. 218.

[58]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[59]- ريشنباخ، هانز، **نشأة الفلسفة العلمية**، ترجمة: فؤاد زكريا، ط2، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1979. ص. 79.